

ههدى الأثواق

إلى ورد اليمن

بسام خير لي طه

همس الأشواق

إلى ورد اليمن

إهداء

حبًا وإجلالًا لليمن السعيد شعبًا وأرضًا ووطنًا، وإعجابًا بالمجد
الأنثوي المتجسد منذ بلقيس مَلِكة سبأ، وتحيةً إلى الشباب
الذين حلموا باستعادة مجد أجدادهم العظماء، يا شعب اليمن
نرفع أكف الدعاء تضرعًا إلى الله؛ لكي تنتهي تلك الحرب الدائرة
في بلادكم، وتجنح الأطراف المتصارعة إلى السلم وحقن الدماء
ونبذ الطائفية المقيتة. إن الأرض الخصبة في بلادكم تُنبت بِقُلُوبِهَا
وقِفَاتِهَا وفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، ولا تسأل عمن زرع وعمن
حصد.

د/ بسام صبري طه

مقدمة

عن امرأة صنعها الخيال وطواها الواقع، صدفة علمت النفس جمال الروح وأسرارها العميقة فغرقتُ في نورها، عن ظُبية فريدة أنضجت في النفس عاطفة نقية، وصنعت للقلب نوافذ على الأشواق، وأبوابًا من الأمل، وانتشلت أطيافها النفس من قعر الشهوات إلى قمم الروحانية المفعمة بالصفاء؛ فلم تطمع مخيلتي في أنوثتها. بددت وحدتي وأضاءت غربتي ببريق عينها، وتحولتُ من شوقٍ إلى المجهول إلى شوق لها وحدها فتجاوزتُ الرغبة في النوال إلى رجاءٍ في يسيرٍ من الوصال. هي حكاية لا يصدقها عقل، ولكن تؤمن بها الروح. إلى ينبوع إلهامي المتدفق إن هذه السطور نابعة إليك ومنسوجة لك من صدق مشاعري.

إليك وحدك لتظلي أنتِ وحدكِ وليس بعدكِ من يزور عالمي الخاص.

عن الدرّة اليهنيّة

لن أدعي كما ادعى الشعراء، ولن أصبح شوقًا كما فعل الحالمون؛
فالأمر كان عجيبيًا غريبًا وأنا في ذاتي أحب كل ما هو عجيب
وغريب!

الأعجب أن يقود القدر روحًا تغوص في الأمل إلى روحٍ انطفأت
منذ عقود.. فما الذي يجمع بين الموت والأمل؟

لا شيء سوى أن قلبي مات من الأمل، والورد حي ويفوح أملًا.

أنا من أصل قصيدة تبدلت فيها النهاية بالبداية، فعجز الشعراء
عن نسخ الأبيات، حاولت أن أترجم عما في القصيدة فعجزت
جميع اللغات.

حقيقتي أنني لست نبيًا ولا أطمح إلى النبوة؛ بل أحب الإنسانية
ككل ولا أدري ولا أفهم لماذا؟

وبرغم هذا أهرب إلى الفراغ الواسع الذي يخلو من الإنسان،
هناك أفكر فيه، أداعبه، أالأطفه، وأقبل وجنتيه وليس أكثر حتى
لا يظن بي رغبة السوء.

صديقتي جميلة لا أنكر، إن لم تكن جميلة الجميلات، يختفي
حُسنها في قلب قد ذاق مرارة الحادثات.

إذا تحدثت أنشدت، وإن صمتت أوجزت، فلا عجب فهي من
اليمن أرض المكنونات.

صلابة الصخر في أنثى رقيقة تخبرنا بأن الله صنع في خلقه
معجزات.

في عينها بريق لا أدري ماهيته، لم أتيقن إن كان حلاً أم ألمًا أم
خيالات؟

تبًا لزمان يقسو على نفوسٍ أرادت الحياة فأذاقها الجراحات!

يا ظبيتي الشريفة، يا أيقونتي المفقودة، يا مبلغ خيالاتي إنني صادق ولو كذبت الكلمات.

سألت نفسي كيف لي أن أتجرأ فأطلب ما ليس لي؟ كيف أطلب نفسًا ترقد في وحشة الغربة؟

كيف أنشد قلبًا خاليًا من الزحام تؤرقه الوحدة ومذاق الأيام؟
كيف وألف كيف؟

غرقتنا معًا وحينما كان عليّ التراجع تقدمت خطوات.

صدقيني إن أخبرتك أنني لم أكن أطمع في نهديك؛ بل أردت تفسيرًا لبريق عينيك.

أتذكرين عندما أخبرتك بأنني أريد روحًا شاردة هائمة تروض روحي وتعلمني كيف أكون حيًا وحرًا.

لكن كيف أزرع أزاهيري وأنا غداً راحل إلى المجهولات!

سأعود من حيث أتيت وأنتِ تعلمين أين أختبي؛ حيث أغازل الأرواح، وأفتش عما في الصدور، ولا أحد يعرف عما في صدري سواك.

راودتني الغزالة الرقيقة في أحلامي فقبلت رأسها الصغير وأعطيتها
وردة، واعتذرت لها عن الأيام القاسيات.

فلا تمزقي جواباتي النادرة إن عطرتها يا غزالة بالمحبة والسلامات.

ونامي يا عزيزتي قريرة العين هائلة، عاشقة، حاملة. وتمتعي
بالحب، وأنفذي غبار الليالي السحيقة من على ثيابك الأنيقة.
وإن تذكرتني يوماً فسأبعث من حين لآخر بالتحيات.

وللحقيقة، إنني لا أكتب الشعر. فشكراً لأنك وهبتني القصيدة،
وشكراً للحظ الغريب أن أعطاني من الأمل ومضات.

الموسم الأول

لعلك بخير يا ورد، طبت وطابت أيامك عامرة بالخير.

أعترف أنني لم أخط رسالة إلى امرأة قبلك قط، ليس لأنني حديث عهد بالكتابة، أو لأن النساء اللاتي عرفتهن لا يجدن القراءة؛ بل لم تقدر أي امرأة غيرك أن تمس شغاف قلبي، أو تُشعل منارة إلهامي؛ لذا سأصوغ لكِ وحدك رسائلي بما تحتويه من اعترافاتي الليلية.

رأيت الثقب في سفينتك منذ اليوم الأول؛ إنه يشبه كثيرًا الثقب الغائر في قلبي منذ سنين، لذا ربما أردت الإبحار معًا.

اطَّلَعْتُ على قلبك منذ البداية، استكشفت أغوارك، توغلت في أعماقك الغارقة في المعاناة؛ فرأيت نفسي هناك، عرفت أنك تتخبطين مثلي، تسيرين عكس الاتجاه، وتشعرين بأنك مُجَبَّرَةٌ لا مُخَيَّرَةٌ، لكنك لا تستطيعين تحريك القدر الجاثم فوق صدرك.

تكنم ابتسامتك صرختك الدفينة، تضحكين عاليًا حتى لا يسمع أحد صوت بكائك الداخلي، حتى صورتك الجميلة التي زينتها بحسبك الخلاب كانت تخبرني بالحزن القابع في عينيك.

تُعجني صلابتك الأثوية؛ لأنك تُخفي خلفها هشاشتك الرقيقة
ونقاء روحك.

استمعت إلى قصتك الهزيلة عن هذا المهاجر الخمسيني الذي
يدعي حُبك، لم أسمع خفقان قلبك ولم أتحسس شغفك،
فبينما كنتِ تجاهدين لتبرير عواطفك؛ خانتكِ نبرة صوتك
أمامي.

فلماذا تجنحين إلى التبرير يا صديقتي؟ بينما أستشعر بأعماقك
أنك غير راضية، هل تحاولين إخماد أي تمرد وشيك؟ أم تريدان
قمع مقاومة تلوح في الأفق؟

إن لم تتقبل نفسك بمن يميل إليه قلبك فلا تظلميه ولا تظلمي
روحك.

لا يحتاج الحب إلى التبرير، ولا يخضع إلى التفكير، ولا يقوى
بالأقويل؛ فسهام الحب ثاقبة، نافذة، غير عابئة بالمنطق.

يتمسك الغريق بالنجاة في خضم الأمواج المتلاطمة ولو
بالاعتصام بقشة طافية، قد يخون العقل الإنسان وقت الشدة
فلا يفرق بين حبال الأمل وخيوط الوهم، حتى لو لمس الحقيقة

يظل ممسكًا بالخيوط الذائبة؛ خشية السقوط في المجهول،
فيعيش مقيدًا مسجونًا داخل نفسه بالخوف، يشتاق إلى نسائم
الحرية، ويرفض الانطلاق حتى لو تُرك باب الزنزانة مفتوحًا؛
فيقبع في ظلام دامس حتى لا يزوره شعاع أمل يتمطى؛ فالإنسان
عدوما يجهل!

يقولون إن المرأة في الحب أكثر ذكاءً من الرجل؛ فهي تعرف من
يسعى إلى قلبها، ومن يطمع في أنوثتها، من ينصبُّ في أعماقها،
ومن يلمس حواسها المحدودة.

سألتني لماذا أفعل بكِ هكذا؟

أجبتكِ أنني لا أعرف، ولم أكذب لكنني الآن أعرف؛ فنحن يا ورد
متشابهان، متعانقان في اليأس والحزن، إلا أنني أريد لكِ النجاة
وألا تسلكي مثل مصيري القاتم في هذه الحياة، وأريد أن
أصاركِ بحقيقتكِ التي تتلاقى مع حقيقتي، وأريد أن تضحكي
وأنتِ راضية، تحبي وأنتِ قانعة، تعانقي وأنتِ واثقة أن هذا ما
يشتهيهِ قلبك.

في محادثاتنا السابقة لم أكن أعبّر عن همومي؛ بل كنت أشير إلى المتشابه بين داخلي وداخلك، لكنك لم تتفهمني ولم تتيقني أنني أحمل لك كثيرًا من الخير ولا أرتضي لك أذى أو شر.

ربما يجيء زمن تدركين ما كنت أعنيه، وهذه الرسالة وما يتبعها من رسائل سأجاهد نفسي ألا أزعجك بها، وربما أنشر رسائلي يومًا في صفحة الذكريات فيلقمها القدر أمام عتبة دارك.

بعد عتابك الحاد دعيتي كرامتي إلى الابتعاد فاستجبت، ونهتني عن وصالك فامتثلت، لا ألومك فقد تجاوزت الخطوط كافة وحطمت كل الحدود، وأدين لك بألف اعتذار، وأعتذر لنفسي عن حماقاتي، كم فكرت مليًا في الانسحاب، لكنني عجزت عن اتخاذ القرار زُغم يقيني بأنك كنت تراوغين لأجل الرحيل. وفي النهاية، أنت من صنع القرار الجريء.

أعرفك يا رفيقتي منذ عقود فربما تقابلت أرواحنا في أعماق الأبدية قبل أن تهبط إلى موائها الجسدية، وربما لأنني أمتلك قليلاً من المهارة اللازمة لاكتشاف مخابئ النفس؛ فاطلعتُ على أمنياتك وأحلامك ورغباتك منذ الوهلة الأولى. لا تنكري، فقلبي دليل دامغ.

ضايقي وصفك لي بعاشق ولهان يشتاقي إلى الاهتمام، فأنا يا
عزيزتي أكثر بكثير من حكاية في سيرة الحب، أجوب وروحي
الأحلام منذ عقود حيث لا نعرف المحال، ونحلق بلا أجنحة لنجد
من يحلق معنا.

إن قدر الله ليس عبثياً، تحت تلك السماء الشاسعة الممتدة
تعثرنا في بعضنا صدفة، ما أردتُ إلا القرب وما أردتُ إلا الهجر،
حاولتُ إثباتك عن مرادك لكي تختبئ فيّ وأختبئ فيك، أدرك
خوفك من رجل أتى من غياهب المجهول لكن مجهولنا واحد،
فقد جئتُ منك وجئتُ مني.

يحدثني قلبي أحياناً بأنك قد تعودين، ولم يخبريني متى وكيف،
ربما بعد فوات الأوان؛ فأكون شريداً بلا عنوان في بلاد بعيدة
تضيف إلى غربتي غربة أخرى، لكنني سأظل على العهد أراقب
أحلامك وتلتقي أرواحنا فأستطلع أحوالك.

العهد الثاني

أخبريني يا ورد عن حالك، وكيف قلبك؟ وكيف أيامك؟

هَذَا روعي بعد الرسالة الأولى، لكنني ما زلت أفكر فيك كثيرًا، وأشتاق
لحديثنا الهادئ المتحضر، وإلى أحنائك الناعمة الشجية.

تستبد صورتك بمخيلتي في معظم الأوقات؛ فأرفع راية العصيان
وأعلن نفي المقاومة، وما ألبث إلا أن أستسلم أمام جحافل أشواقي.

أكتب هذه الرسالة في السابعة صباحًا بعدما استيقظت بوخز في
صدرتي، نتيجة مطاردتك لي في منامي، يتطاير النوم من عيني وأميل
إلى السهاد أكثر هذه الأيام، وقد بلغني أنك تعانيين أيضًا وتحظين
بسويغات قليلة من النوم.

هل أنت بخير؟ أم تشتاقين مثلي؟

أنا أعرف أنك أشد مقاومةً، لكن هل تُجدي المقاومة؟

في الرسالة السابقة أخبرتك بنبوءة قلبي بأنك قد تعودين، ويبدو أنني
من سأعود لكن أخشى أن يحطمني جلد الذات.

عجبتُ كثيرًا من فيضان الحنين وسيل الأشواق في قصائد الشعراء،
حتى سخرت يومًا عندما غرد شاعري المفضل (الحنين وجع لا يحن
إلى وجع)

صدق "درويش"، وكنْتُ من الجاهلين؛ فالشوق وَصَبَ وأنين. وما
خشيتُه دومًا تحقق على يديك وصرت قابعًا في قرارة بئرِك، أخوض
صراعًا في الأعماق، وأقول لنفسي ربما يكون هذا إلحاحًا فكريًا يرحل،
أو شغبًا عاطفيًا يَخْمُدُ مع الأيام، أستشعر حاجتي لمنع عقلي من
التفكير وإيقاف قلبي عن الخفقان، ولكن كيف؟

أخُلق التأويلات في محاولة للحصول على تفسير إيجابي يُرضيني،
فعجيب أن أشتاق إلى امرأة من صنع الخيال، امرأة لم أغرق في
عينها حد الهُيام، وربما لا أكون فارسها المنتظر في الغرام، وكيف
أكون فارسًا بلا جواد.

أُغْرِقْ نَفْسِي بِعَشْرَاتِ الْأَسْئَلَةِ وَلَا أَنْالَ إِلَّا وَجُومًا، وَإِطْرَاقِ يَبْعَثُنِي إِلَى
حَزْنٍ عَسِيرٍ كَأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ يَسْمَعُنِي؛ فَتَشْتَعَلُ الْحَيْرَةَ وَتَنْدَلَعُ
الرَّيْبَةَ، وَمَا يَتَبَقَى إِلَّا رَمَادُ النَّارِ.

الْحَيْرَةَ شَعُورٍ مُؤَلِّمٍ حِينَ نَفَقَدَ الْإِتْجَاهَاتِ، وَيَخْتَلِ الْوَعْيَ؛ فَنَعْجِزُ عَنْ
الْقَرَارِ، وَيَسُودُ الْعِجْزُ النَّفْسَ، وَتَلْتَهُمُ الْكَأَبَةُ الْقَلْبَ.

أَشْتَاقُ إِلَى قَسَطِ هَانئٍ مِنَ النَّوْمِ، وَإِلَى سَكُونِ مَصْطَنَعٍ يَمْنَحُنِي بَعْضًا
مِنْ رَاحَةِ الْبَالِ؛ كَيْ أَسْتَعِيدَ قَلْبِي الصَّبِيَانِي الْوَدِيعَ.

أَحَاطَنِي قَلْبِي بِكُلِّ امْرَأَةٍ لَمْ يُؤْمَنْ بِهَا فَتَعَذَّرَتْ الرَّحِيلَ، فَلَمْ لَا يَخْبِرُنِي
وَلَوْ كَذِبًا أَنْكِ لَسْتَ الْمُنْشُودَةَ فَتَهْدَأُ أَشْوَاقِي، وَتَتَوَقَّفُ أَحْيَلْتِي عَنْ
حِصَارِي؛ بَلْ يُغَالِبُنِي إِلَى مِطَارِدَتِكَ بِشَغْفٍ جَلِيلٍ، كَأَنَّ مِنْ يَمْتَلِكُ تِلْكَ
الْمُضْغَةَ الْكَامِنَةَ بَيْنَ ضُلُوعِي أَنْتِ وَلَسْتَ أَنَا، وَكَأَنِّي أَحْيَا مُؤَامِرَةَ
يَتَوَاطَأُ فِيهَا قَلْبِي مَعَ عَيْنِيكَ لِتَحْرِيزِي عَلَى التَّمْرَدِ، وَمَا عَادَ لِي طَاقَةٌ
عَلَى التَّمْرَدِ، وَمَا بَقِيَ لَدَيَّ مَا يَكْفِي لِأَنْهَضَ إِنْ سَقَطَتْ.

فَأَخْبِرُنِي يَا وَرْدَ، كَيْفَ أَدَاوِي كِبْرِيَانِي إِذَا شَغَفَ قَلْبِي بِامْرَأَةٍ تَهْمِنِي
بِإِدَائِهَا، وَتَتَوَغَّلُ فِي عِتَابِي؛ لِأَنَّي رَأَيْتُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي تَعَكَّسُهَا مِرَاةُ
رُوحِهَا النَّقِيَّةِ الصَّافِيَةِ.

وها أنتِ يا ورد بعد فرارك، تجلسين صامتة على أريكته الناعمة، تستمعين إلى أنغامك المفضلة، وتزينين بالجمود المصطنع بعدما أشعلتِ حرًّا ضرورًا مرت ساعاتها الأولى تبديد الأخضر واليابس؛ فقضت على ما بقي من رغبات الحياة، شعرتُ بالحاجة إلى الثأر وعزمتُ على الغرق في فتنة النساء، فربما أحصل على هدنة تمنحني الوقت لانتشال كرامتي الجريحة من الميدان، لكن فشلت الهدنة قبل أن تبدأ، حاولت تكرار التجربة مرات عديدة وكأن لعنة الحرب أصابتني في نفسي ولا أدري متى تنتهي، فحين تنشب حرب لا تتوقف إلا لدموع السماء.

في ختام رسالتي، يراودني شعور سخيّف جدًّا، حيث بقيت طوال يومي أكتب نفسي إلى امرأة لا تكترث لسطوري ولا ترقُّ لحالي.

الهدس الثالث

يومي مثل أيام أمس يا طفلي، يدور حولك وبالي مشغول بك مع
تحسن طفيف في مزاجي، وحصولي على قسط متوسط من النوم.

أتمنى أن أمسك وجهك بيدي لتنظري في عيني عميقًا، ثم أضع رأسك
برفق فوق صدري لعلك تفسري لي ما يدور بداخلي. أنا فضولي جدًّا؛
أريد أن أعرف سرزوبعتي الداخلية، وهل تنتهي أم تستمر؟

أريد أيضًا أن أزودك ببعض الملاحظات كي تنجني في ترجمة باطني،
أنا معجب جدًّا بملاحك الأنثوية الرقيقة، لكنني مغرم أكثر بالطفلة
البريئة الحزينة التي لا تفارق روحك، أشعر بها وبرغبتها في الانطلاق
لتحظى بمرح الطفولة، وتلهو بعرائسها الجميلة وألعابها الصغيرة
رفقة صديقاتها الأنبيقات. أظنها ترغب فيمن يصف شعرها الجميل،
ويُربت على ظهرها، ويعطيها قبلة حانية على جبهتها الناعمة؛ فهي
تشتاق لحنان الأم ورعاية الأب وسند الأخ.

أنصحك أن تُحرريها لتستمتع بالحياة؛ ترتدي فساتينها القصيرة
المطلية بالزهور البسيطة، ترح وتلهو وترقص على أنغام أمانها
البريئة.. فربما هناك تلتقي بقلب طفل كبير يُعلمها الحياة.

إن حرصك الشديد على إخفائها عن الأنظار يخنق رغباتها، ويُشعرها بالضيق. إنها متوترة جداً، تشتاق إلى الدلال والاهتمام لكنها تخشى نواهيك الشديدة، أفهم خوفك عليها من العالم المحيط الذي يغتال البراءة، لكن لا تكبت طفولتها واستمتعي بعذوبتها ورقة أناملها، بينما تسيري بجوارها تحتضن يدك يديها، ودعها تريض في بساتين الحب، تطارد الفراشات الملونة، تقطف الزهور التي يفوح عبيرها من أنفاسها، لا تقيدي طفولتها بالماضي المقيت، ولا تقرني الماضي بالحاضر أو بالمستقبل؛ فالإنسان الذي لا يرى آفاقاً لمستقبله يضيع حاضره ولا يبقى سوى ماضيه يحاصره.

أعرف أنها تحب السباحة فدعها تلاطف المياه، تتحدى الأمواج، تسبح ضد التيار، وترتشف قطرات الشجاعة في مواجهة الأخطار؛ فالشواطئ مترامية الأطراف وتفيض بالشجعان حيث يمكن أن تصنع مع أحدهم جنتها البسيطة على الرمال.

اشتري لها ورقاً أبيض وألواناً خشبية لتبدأ في هوايتها الجديدة ترسم الطبيعة الخضراء؛ حيث النخل وافر الظلال، وأشجار فاكهة غنية بالثمار، وجداول الأنهار تحمل الذكريات، اركضي يا طفلي ضد الذكريات ولا تتوقفي إلا حين تخذلك رثائك، ستشعرين حينها بفوران الدم في عروقتك يدفعك إلى التحدي والحماسة.

هل من الممكن يا ورد أن تمتزج دمائي بدمائك إن التقينا في مصب واحد؟

استمري يا طفلي، فارسي ضفائر شعرك التي صنعتها أمك يومًا ما، ولا تيكي إن شعرت بالحنين لأمك؛ لأنها تفرح عندما تبتسمين من قلبك، ارسعي أحلامك وانتزعيها كالورد بين الأشواك الدامية وحول الورد، ازعي قليل من العشب واسقيه ماءك العذب؛ لتستلقي عليه حين يغلبك التعب، حدقي في زرقاء السماء وراقبي قطع السحاب الأبيض الذي يسير مع النسيم، الذي يداعب وجهك الجميل.

كم تمنيت أن أدخل جنتك الصغيرة أستلقي على هذا العشب بجوارك؛ لتأمل الحياة سويًا، نستمع إلى تغريد الطيور فوق الأشجار، وأضع على رأسك أكاليل الياسمين، وألثم يدك الرقيقة بأجفاني، وأطمئنك أنني بجوارك حتى لو كنا نحيا في عالمين مختلفين.

اصنعي على الورق نسخة حقيقية من فارس أحلامك، الذي تمنيه؛ وجهه، عقله، عضلاته، قلبه، أحلامه، وكل ما يدور في خيالك عنه؛ حتى تتعرفي عليه إن التقيتيه، واصنعي هذا العشب الهادئ الذي تحتضنان بعضكما فيه، ولا تنسي عُش أطفالكما الصغار، ارسعي المستقبل ومزقي الماضي.

لقد تعلمت الكتابة على يديك فهلا تعلميني الرسم يا ملهمتي؟

أريد أن أحادثك في موضوع مهم، لكنه شائك ومعقد ومثير للإزعاج، وقد تستأين مني ولكن لا بد أن أُعبر عما يدور في ذهني، فأتمنى ألا تغضبي ولا تسيئي الظن بي.

إن الرجل يكون نبيلاً في سلوكه ومبادئه معاً، فلا أرى النبيل في رجل يقترب من فتاة من عمر ابنته يلاطفها في وقت الشدة والمحنة، ويمد يد العون والعطف ليصنع ثغرةً في قلبها المكلوم، لا أستسيغ هذا الفعل ولا أدعو صاحبه نبيلاً حتى لو صنع المستحيلات؛ فمن يعطي من قلبه لا ينتظر الجزاء.

لا أحاكم هذا المهاجر الخمسيني القاطن في النصف الآخر من الأرض، لكن نحن الرجال إذا وصل إلينا الشيب نشتاق إلى مغامرات الشباب ونزوات المراهقة، نريد أن تعود إلينا أمجادنا الذكورية حيث تمنحنا الفتيات الصغيرات أقداراً من الفخر الذي نشتاق إليه، يدعوه البعض مراهقة متأخرة وأنا أدعوه التشبث بالماضي المجيد؛ لذا

هناك فرق دائم بين أوقات الاستجمام وجِدِيَّة الاهتمام، احذري
المسافات البعيدة يا طفليتي فهي مؤلمة وتدفعنا إلى الاحتياج.

فعندما يئن الإنسان يحتاج إلى رفيق ليجفف أحزانه وأحياناً لا
يستطيع أن يفرق بين عاطفة الحب وعاطفة الحرمان، أضحكُ جدًّا
الآن حيث تذكرت اتهامك لي بالحرمان!

يا حلوتي أنا أبحث عن روحٍ لروحي ومعنى لحياتي، أفهم الأنوثة
بصيغة مُقدسة؛ فهي ليست إمكانيات جسدية، أو تضخم عضوي
كامتلاء في الأرداف، أو انتفاح في الشفاه أو النهود؛ فالأنثى في مفهومي
روح وعقل، شخصية وذكاء، سحر وفتنة، شبق ورغبة، سعادة
ومتعة، إلهام وأحلام، ملاذ وملجأ، ضعف وقوة، رقة وصلابة، غنج
وجدية، رُقي وبساطة، احتواء وانسجام، نعومة وصلابة، إغواء
ودفاء، ابتسامة وضحكة، عاطفة وشوق، صديق ورفيق، إبداع
وابتكار، نور ونار.

الأنثى هي مولد الشغف حين تغزو الأوردة وتتغلغل في الروح، وتطبع
بصمتها في كل خلية من الجسد فهي مهد الحياة.

أعرف أن مفهومي معقد وصعب وربما يكون مستحيلًا، إلا أنني لا
أنشد الكمال ولا أطلب من السماء أن تمنحني حورية من جناتها.

أنا أبحث في الجذور قبل الأغصان، وللحقيقة أبغض التفاهة والزيف
والتصنُّع وأشعر بنفور من تلك الأنثى الفارغة حتى لو كانت فاتنة
أنيقة بديعة في التفنن، أحب الجمال الأنثوي لكن جمال بلا ذكاء
يتوجه يصبح خالٍ من المعنى، وفارغ من المضمون، هؤلاء الدُمنى
المهلوانية تلتخن سمعة الأنوثة.

أنا كائن روحي، هواي صوفي، وعقلي متفلسف، أفتش عن يشبه
روحي ويتمازج مع نفسي ويسكن أعماقي المتأججة؛ حيث تنفجر
البراكين، وتندلع الزلازل، فمن تلك المجنونة التي تقبل العيش وسط
حمم مشتعلة؟!

الهوس الرابع

كيف حالك يا رفيقتي؟

أتمنى أن تكوني بخير وسعادة وإن كنت أشك في هذا.

استوطنت الوحشة قلبي منذ رحيلك، لا يؤنسني سوى قلبي وكتاباتني، حاولت أن أتوقف عن الكتابة فلم أستطع، فكلما أكتب إليك أشعر بأنفاسك قريبة مني تخفف وجعي.

هذه المرة سأعطيك فترة للنقاهة من رسائل العميقة التي تزعجك، هذه الرسالة يحتاجها صديقي، لكنني أصنّفها من جملة رسائلي إليك، فأرغب أن تقرئها في وقت ما في يوم ما؛ لكي تصلي إلى المراد.

يحتاج صديقي هذا إلى كثير من المواساة وقليل من الشفقة نظرًا لما يمر به من أوقات عصبية؛ لذا أجدد الصياغة بأسلوب أكثر بساطة.

لا تحزن يا صديقي إن خذلوك فقد خذلوا من قبلك ومن بعدك وبالخذلان هم يؤمنون، ارفع رأسك فلست الضحية؛ إن قلبك هو الضحية وغباءك هو المتهم، نصحتك ألف مرة ألا تستسلم وفي النهاية ابتلعت الطعم.

تقاومني لأنني صوت الحقيقة الأبدية وأنت ترفض الانصياع إلى
الحقيقة!

ألم أخبرك الحقيقة فما ارتضيت بياني!

دعك من الهراء والخيال ولا تغزل الكلمات؛ فليس هناك ما يُكتب أو
يُقال، احفظ دفاترك القديمة كذكريات بالية، ودعك من الماضي
ودعك من الحاضر وإلى الغد انهض.

سيأتيك يومًا تسخر فيه من صورك المهترئة فوق حيطان الماضي
القريب، لكن لا تمزقهم؛ دعهم يمرون أمام عينيك حتى تتذكر يومًا
بأنك كنت موهومًا، لا تصدق تلك الحقائق التي بين يديك؛ فالخداع
يسري بين صفحات مرعلها التكرار.

أقول لك ما لم أقله لغيرك.. قد مات الأدباء من أثر الإهمال، وسقط
الشعراء من فوق البرج العتيق فلم تعد الأبراج تأوي الأبرياء؛ بل
صارت ناطحات مخصصة للأثرياء.

إن أقسموا لك بالتوراة والأنجيل والقرآن فلقد كذبوا وكذبوا
وخدعوا الأنبياء.

لا تُعد يا صديقي إلى حيث انتميت؛ فالشمس الدافئة صارت حارقة
وشجرتنا الصغيرة أنكرت هويتنا، لا تجزع فالشجرة لم تعد صغيرة
وإن ظللنا نحن صغار، يد الزيف أسقتها خمراً من سائر الكؤوس!

حتى الهواء الذي عاهدناه بنشر بذوره فوق الثرى صار يلقُظنا،
يطاردنا، يحرق أنوفنا ويخنق أنفاسنا بعد أن عقد هدنة مع الغبار.

وحبيبتك الصغيرة تزوجت وحضرنا العرس ثلاث ليالٍ بلا انقطاع!

أتعرف من تزوجت؟!

نعم، غريمك الأبدى، لقد رأيتها تحتضنه بين ذراعها بينما هو بلا
ذراع، تذكرت وعدها لك بأن درتها ملكك أنت ولكن التجارة مهارة
وأنت أحمق يا صديقي.

أتذكركم نصحتك بمخالطة التجار، والسير في الأسواق، وغزو دهاليز
الأنداد، ومجالسة الفرسان، وأخبرتكم بأن الدنيا سيف وحصن
وأحزان، لكنك أعرضت ونادمت الشعراء، وصاحبت الفلاسفة،
وعاهدت الدراويش في العراء.

كفّر عن ذنوبك يا صديقي، كفّر عن خصالك النبيلة، انزع قلبك
الرقيق واغسله بماء الوضوء ثم ادفنه حيث مات الشجعان؛ لن

يُزهر، لن يكبر، لن يرضى بتراكب، لن يمتزج بأهوائك، ولن يقبل بماء سمائك.

أريد أن أصارك بالحقيقة، اختارت حبيبتك البقاء واخترت أنت الفناء؛ فهذا الزمان يزن الحياة بأوقية الذهب، وأمتار الحرير، وأثقال الياقوت واللؤلؤ، ويمنح النعيم لسكان القصور والقلاع.

هي فضلت ضيعة شاسعة على رجل بلا فراش، أرادت ثراءً بلا شغف على حب بلا أمل، إنها جريمتك؛ لأنك عشقت بنت الأمير، فمن البديهي أن تتزوج حسناء الإيوان من حفيد السلطان، الأصل وصل وأنت مقطوع من الحياة، فلا تفكروا تقترب من الفاكهة المحرمة، ولا تتقلد عقول الحكماء. انهض، ارحل عبر الأزمان؛ ربما تجد زماناً يناسب هواك، فإن وجدته فاعتنقه ومُت في أحضانه بلا خجل؛ فالموت حقيقة لكن القوة في أن نقرر كيف نموت وكيف نُبعث إلى وطن آخر.

سأدعوك يا صديقي وسأرسل إليك صلواتي ومناجاتي وتسبيحاتي، وإن مررت بجوارك سأضع زهرة فوق النصب التذكري، الذي يشهد بوجود الإنسان، لكن في زمن لا يؤمن بالإنسان.

أخبرني فقط قبل أن تغيب، أتراني مخلصًا في نصائحي القديمة؟ هل
تعترف بصوابي وخطأك؟ احكي لي عن ردود أفعالك، حدثني عن
خيباتك الثقيلة، هل حقًا ما زلت تشرب عصير الصمت!؟

سمعت أنك ما زلت تغازل وجهها الصبوح، وتقطف ورد حديقتها
المليح، عندما تقطف هذا الورد أين تضعه؟

لا تُفجعني بأنك تضعه طوقًا حول عنقك الآن، لا أريد تخيل هذا
المشهد العبثي، لا بأس يذبل الورد كما تذبل الشيبية، ويسقط من
حول عنقك، وأرجو أن يذبل الوجد في أعماقك قبل أن يحتضر
قلبك.

افعل ما شئت يا صديقي فقد يُست منك، لكن لا تعود.

الهندس الخامس

يا طفلي، أنا منهمك هذه الأيام في العمل بلا راحة أغوص في أشغالي بدون تعقل، إنها رغبتني كي أتوقف عن التفكير فيك لكن لا جدوي، أنال فقط من حظي صداعًا شديدًا يطعن رأسي وإرهاقًا يُهيك جسدي.

تزورني قبل نومي خيالاتك فنظل نتصارع، حتى يغشاني قليل من الوسن المضطرب، وعندما أفتح عيوني أجدك ماثلة قرب سريري.

أتعرفين، أعشق النوم ولو أتاحت لي فرصة أنام لساعات وأحيانًا ليالٍ كاملة، يعتقد المحيطون أنه هروب من الحياة إلا أنني أعدُّ النوم المرادف الحقيقي للموت، وأنا أشتبي النوم والموت معًا؛ فالنوم يمنحني هدنة مؤقتة مع أفكارني، أما الموت فهو رحيل إلى الحقيقة التي تسعى إليها أفكارني، فأنا يا طفلي مصاب بلعنة أبدية تسمى التفكير، حيث رُزقت بعقل متفلسف عنيد متدفق ومتمرد لا تنقطع عنه الأفكار، ولا تهدأ به الأسئلة، يجول ويصول ويتساءل عن طبيعة كل شيء، يُنقب عن كنوز الحقائق والأسرار، ويناطح الوقائع والمسلمات.

يحلل عقلي الأفكار إلى مئات التفاصيل وعشرات الملاحظات؛ فيسبح في أفلاك فكرية بلا انقطاع بلا توقف، يثور ليمتد ولينتزع الحقيقة من أمهاتها. فكم خاض من استكشافات فكرية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وشهد ويلات معارك أحداث وتناقضات تحتاج إلى سنوات لتفصيلها وتأويل أبعادها!

يشجع فضولي عقلي على التدبر والتأمل والتعمق والاستبيان، وتؤجج أحلامي الثائرة أفكاري؛ فأنخرط في دوامات تستنفد طاقتي، حيث تجنح أحلامي إلى تخطي الواقع وحواجزه، وما يتخطى الواقع في وطننا هذا يُعد دربًا من الجنون والعبث ومصيره الفشل، تعاقبت مرات عدة من اليأس لكنه وباء مستشري في وطن يعتنق الجمود ويعادي الجديد.

إن التكرار في وطننا صناعة للفشل، وغياب الابتكار وظيفة للكسل، ولأنني لا أنجح بالتكيف يموج الاكتئاب في روجي فتارة يحطم كياني، وتارة يكون أكثر لطفًا فهدم جدارًا أو اثنين ثم يمضي.

أريد أن أحلق يا ورد، أحلم أن أحطم قيودي كافة، وأفر من زنزاني إلى رحاب واسع أسكنه ويسكنني، حيث لا أحياء المعتاد ولا أتعاشيش المألوف، نفسي تواقفة وقلبي أواب حيث بصمة ترحل بي عبر التاريخ قرونًا وقرونًا.

أُفْرِطُ فِي لُومِ نَفْسِي أَحْيَانًا، فَلَمْ لَا أُخْتَفِي وَسَطَ الْقَطِيعِ فَأَحْيَا
مَتَبَلِّدًا، سَطْحِي الْفِكْرَ وَالْهَوِيَّةَ، لَا يُثِيرُنِي سِوَى اللَّذَّةِ الْجَسَدِيَّةِ، فَلَا
شَغْفَ بِمُخْبِوءٍ، وَلَا تَطَّلِعُ إِلَى مَكْنُونٍ.

حَاوَلْتُ يَوْمًا مَا فِي أَتْنَاءِ صَبَابَتِي أَنْ أَصْطَنِعَ إِطَارًا عَيْثِيًّا يَحْفَلُ بِالرَّفِيقَةِ
وَالصُّحْبَةِ، يَاوَى إِلَى الْفِرَاعِ، وَيَنْزَوِي إِلَى اللَّهْوِ. غَادَرْتُ نَفْسِي، خَاصَمْتُ
كُتْبِي، وَأَعْتَقْتُ قَلْبِي؛ فَكُنْتُ أَرْوَحُ وَأَعْدُو غَرِيبًا كَثِيبًا تَعْلُونِي ابْتِسَامَةَ
الزَّيْفِ، فَأَهْ مِنْ غَرِيبَةِ النَّفْسِ يَا وَرْدًا! تَمَادَيْتُ.. تَمَادَيْتُ حَتَّى اشْتَدَّ
الطُّوْقُ الَّذِي يَمْسِكُ بِزِمَامِهِ قُوَّةَ كَامِنَةٍ فِي ضَمِيرِي، وَمَا أَدْرَاكِ مَا
ضَمِيرِي.. فَلَوْلَاهُ لَاسْتَوَطَّنْتَ قَاعَ الْجَحِيمِ.

اخْتَرْتُ الْعِزْلَةَ، أَطْفَأْتُ أَفْكَارِي إِلَى مَا يَسْعَنِي، سَكَنْتُ الْهَوَامِشَ،
عَانَقْتُ اللَّامِبَالَاتَةَ، أَغْمَضْتُ عَيْنِي كَيْ لَا يُغْرِبَنِي الضُّوءُ، وَصَمَمْتُ أُذُنِي
عَمَا يَطْلُقُنِي لِأَفْكَارِي، لَمْ تَسْتَكُنْ نَفْسِي وَلَمْ يَرْضَخْ عَقْلِي؛ فَالظَّلْمَةُ
مُؤَذِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنْ أَفْكَارِي الْمَتَطَفَلَةِ. وَفِي النِّهَايَةِ، تَسَلَّقْتُ الْمَدَادَةَ إِلَى ضِوَاءِ
الشَّمْسِ انْتِصَارًا لِنَامُوسِ الْكُونِ.

أَخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الظَّلْمَةِ يَا وَرْدَ مَا فِيهَا خَيْرٌ وَمَا فِيهَا نَفْعٌ، فَلَا
تَسْقُطِي أَنْظُرِي وَتَرِيبِي، وَرَاءَ كُلِّ شِعَاعٍ لَامِعٍ جَحِيمٍ نَجْمٌ يَضْطُرُّمُ. لَا
تَنْزَلِقِي يَا رَفِيقَتِي؛ فَالنجاة من الهوة السحيقة صعبة ومكلفة، فليتك

تخبريني كيف أمنعك عن نفسك، اكتب لي ولو رسالة تخبرني بأنك ما زلت على شفا الحفرة.

في الختام وكي لا أطيل، أريد أن أخبرك سريعًا بقصة عجيبة في أثناء دراستي الجامعية لا يعلمها إلا الله، قادي القدر إلى مقهى بعيد في طريق ناء، رغبت في كوب قهوة ولكنني حصلت مجانًا على حكمة عميقة مع كوب قهوتي اللذيذة.

كان يجلس قبالي في المقهى رجل في أواخر العمر، شعره أبيض كالثلج يتناثر كشعيرات متباعدة تظهر على استحياء في رأسه الصغير، لحيته كثيفة مهذبة وبيضاء كلون الزنبقات، وجهه مضيء كنور الشمس لا يعكر صفوه سوى تجاعيد الشيخوخة، وعيناه حادثان متألفتان، تجاذبنا أطراف الحوار ثم أخذنا الحديث إلى دروب وطرق متشعبة عرجنا فيها على الفن والسياسة والأخلاق والإنسان والقضاء والقدر، كان عطاؤه لا ينقطع مُزِينٌ بأدب جم وهدوء وفير، أغرقني بنصائح رقيقة، تبادلنا أفكارًا واصطدمنا برفق في أطروحات واختلفنا في عدة آراء.

كان يستمع إلى حديثي بإنصات يحمسني إلى إطلاق مخزون أفكارني وأحلامي أمامه، وعندما لا يستسيغ من حديثي شيئاً يبتسم ابتسامة مأكرة ويتركني حتى أفرغ، ثم يبدأ بتفنيد كلامي بعقلانية فريدة، لكنني كنت يافعاً هائجاً جاهلاً بالحكمة والتعقل.

مضى الوقت ساعات وكأنها لحظات، ومع نهاية اللقاء صب في أذنيّ جملة لم تغادرني (ستشقى يا ولدي في الدنيا إلى أن تستريح).

صدمتني عبارته فقابلتها باللامبالاة ثم رحلتُ إلى عالمي الخاص، وقبل رحيلي وعدته بأنني سأعود لزيارته لكنني لم أعود.

طوال رحلتي إلى منزلي أفكر في حديث الرجل، في رجاحة عقله، ذكائه المتقد، ثقافته اللامحدودة، وحكمته المتبصرة، تداولت كلامه في رأسي عدة أيام ثم أغفلته كأنه لم يكن؛ فعنفوان الشباب قد زين لي تحدي الأقدار وتحقيق المحال.

مرت سنوات كنت أرتحل فيها بالقرب من المقهى ولا أدلف؛ أعاند رغبتني في لقاءه تمرّدًا على نبوءة شقائي، ويا ليتني كنت أملك أن أسافر عبر الزمن حتى أطيّر إلى مصيري هناك وأستشرف أحوالي؛ فلو كنت أعلم ما يطويه الغيب لأصبحت تلميذًا عند قدم ذاك العجوز!

عُدت إلى المقهى لكن بعد فوات الأوان، في بعض الأحيان كنت أمكث كورقة حائط مُلصّقة على جداره لساعات أرقب الباب والعابرين لعله يطل بوجهه فأراه، أدليت بأوصافه لكل رواد المكان لكنه اختفى بعدما تخلفت عن الميعاد.

الهندسة السادسة

الأمس كان صعبًا، وليلي كان أصعب؛ شعر قلبي بالانقباض وأخبرني
بأنك لستِ على ما يرام، شاهدك قلبي في غرفتك صامتة، غاضبة،
حزينة، ومكتئبة، ظل يراقبك لساعات حتى غرق في الهم، اعتقدتُ
أن رحيلك عني سيشفني صدرك ويريح قلبك لكن لم يحدث.

فلما تعذبتني؟ أم تستمتعين بعذاب نفسك؟

حاولت أن أتوقف عن القلق فلم أستطع، تسللت ليلاً إلى صندوق
بريدك لأضع رسالة إليك تناجيك، كشفتني نفسي فما دُقت النوم ولا
الراحة طوال ليلي، اتهممتي بالترفيط في كرامتي وبخنتي بقسوة، غلى
الدم في عروقي، اشتد خفقان قلبي، أخبرت نفسي بشوقي إليك؛
فزادني ألمًا على جراحي، حاولت أن أقنعها بأن الشجاعة تكمن في
الاعتراف بما في داخلنا وأنا لا أريد أن أحيا جبانًا، فما التفتت إليَّ
وأعرضت عن خطابي.

أومن أنكِ تستحقين الحب يا ورد، لكنني لا أعرف حقيقة داخلي؛
فأنا شغوف بكِ، ومشتاق إليك، وأرتاع عندما أستشعر بأنك لستِ
بخير، أحيا في وسط إعصار عشوائي همجي بربري يبتلعني، يتقاذفني
فيطرحني أرضًا، يدق عظامي، فما يلبث أن يجتاحني إلى وجهة غير
معلومة.

ينتابني أحياناً شعور مُلح للاعتراف بأشواقِي كي أستريح من شحنتاتي العاطفية، وأبْرء نفسي أمام نفسي، وأن مشيئة الله نافذة على خلقه. أتمنى لو كان من الممكن أن أشق صدري أمامك فأستريح من عناء الحديث والترجمة، عَمَلتُ بنصيحتك انخرطت في علاقات غرامية متعددة، هناك من تروق لي لكنها لم تستطع أن تمحو صورتك من ذهني، أو تهدد عرشك الذي في قلبي، يرفض قلبي الاستمرار وأنا أرغمه لكي أنقذ نفسي من جحيم الشوق؛ فأسقط في جحيم الفوضى والعبث.

عندما ترتادين خيالي أهرب إلى التفكير في الأخريات، لكن عندما تصبح عاصفة الشوق هائلةً أركع أمامها وأصب اللعنات على عقلي؛ لأنه تجراً على التفكير بغيرك!

أستشعر النشوة مع هؤلاء النسوة لحظات، وعندما تنقشع الغيوم تعود شمسة للظهور، ويجلديني ضميري تأنيباً، أشعر بالخزي لأنني أشعرهن بأنهن قريبات وأنا أبعد ما يكون عنهن وأقرب إليك، من قال "إن أنثى أخرى تمحو آثار الأولى قد كذب".

مستمر يا طفلي في لعبة المراهقة؛ فليس لي ملجأ من لوعتي سوى حماقتي مع هؤلاء النساء، فربما مع الوقت تسكن أشواقي ويخمد قلبي فأدفنه.

أعرف أنني أعاقبني كأنني أسير على منوالك في ظلم النفس، أشعر للمرة الأولى في حياتي بالزيف والخيانة لمبادئ وقناعاتي. إنه شعور يميزني إلى أشلاء متفرقة متباعدة كبعد السماء عن الأرض، وأصطنع فرحة وأنا متشبع بالحسرة، لا ألومك يا عزيزتي فقط أعاتب وأصاح نفسي بالحقيقة ليس إلا.

أدرك أنني أبحث عنك فيهن، أتلمس روحك بينهن، وأشتاق إلى ضحكتهن في ضحكهن، لكنهن لسن أنتِ أبدًا، أنتِ الأمل والحلم والغد إذا ابتسمت، أنتِ الحبور والفرح والبهجة إذا تلطفت، أنتِ الشوق والحنين والشغف إذا رحلت، أنتِ.. أنتِ وكلهن غيرك.

ألا يكفيك أنني أطلعته عما يجول في صدري، فبثت إليك نفسي ونفحت أسراري، ذكرياتي، أمنياتي، ورغباتي، أؤكد لك يا ورد أن الشكوى لغير الله ليست مذلة ولا منقصة إلا أن الإسراف في كتمان الباطن إذلال للنفس وانطفاء للروح. يميل البشر وأنا معهم إلى الكتمان، لكنني ضجرت من الصمت، ولم أكن لأستخرج باطني أمامك إلا لأن روحك تشبه روحي، فاذا ساءت بك الأيام فقلبي

معبدك توضيئي وصلبي متى تشائين، واعترفي في حضرة الحنين، وإذا ضاق داخلك سأمحك داخلي فيه تسكنين، فتكتنك روجي ولو لألف عام؛ لا لشيء سوى ضحكة نقية طاهرة طفولية من حين إلى حين، وإن لم تصمد حياتي فادفني قلبي بجواري، وضعي على قبري وردتك الحمراء واكتبي على شاهدي قلب وضاء وروح بريئة خدشها الحياة واستباحها القدر، فلا بقاء بقلب نبي ومراد ولي وعقل زنديق.

الهوس السابج

أصبحت الكتابة مؤلمة وقاسية هذه الأيام؛ كل الحروف التي تنسكب مني تسحب من عقلي وقلبي طاقة عظيمة، وتتطلب مجهودًا جبارًا لأحتويها؛ لذا أعتذر عن الكتابة مؤقتًا في الأيام القادمة، وبرغم شوقي لمداعبة الأبجدية التي أصنعها لك خصيصًا لكنني أذهب في نزهة لعلي أستطيع أن أُلقي أشواقي في البحر فيزداد هياجًا واضطرابًا وأزداد هدوءً وصبرًا، لكن قبل الذهاب هذه رسالة موجزة إلى غزالي الصغيرة .

فبعد التحية والسلام وكل ما يُقال من عبارات التقدير والاحترام.

يا غزالي لا تسألني عن هويتي أو عنواني أو مكاني أو كيف أكتب اليك أشجاني.

أما أنا لا أراك ولا يمكن لعينيك أن تراني وهذا أفضل لكلينا، اعتقديني صدى صوت يطوف أحلام البشر بهمس ثم يختفي.

أما لماذا؟ فلك الحق في الحصول على إجابة فقد رأيت فيك مأساتي وتكرار لروايتي الحزينة القديمة، التي كتبت منذ سنين برغم اختلاف التفاصيل والزمان والمكان والعنوان ومجريات الأحداث.

فمُعَلِّمِي لم يكن مثل مُعَلِّمِكَ؛ بل كان أستاذًا نبيلًا راقبًا كريمًا في كل شيء إلا في عواطفه؛ كان حازمًا كالسيف، صلبًا كالصخر، وبالكاد يكون لينًا، علّمني علوم الأخلاقيات واللغات والإنسانيات، درّسني الأبجدية والحكمة والعقلانية.

لكنه لم يبرع في علم الحب، بالكاد يحفظ حروفًا متناثرة والقليل من المصطلحات العاطفية، أو ربما درسها فنسبها.

لم يكن يملك عصا غليظة، نظراته أقسى من ألم السياط، تعابير وجهه الغاضب أشد عقاب، لم يمسح رأسي يومًا، لم يمرر يده برفق فوق ظهري، لم يمنحني عناقًا حارًا، لم يمدحني أمام نفسي أو أمام أقراني، كان مثاليًا عمليًا لا يحب الفكاهة في أثناء الشرح، ويرفض أي دعوات للضحك أو الدُعاة، كان شُغله الشاغل أن ينفذ إلى عقولنا لا إلى قلوبنا.

لكن أحبه قلبي جدًّا وانشغل عقلي بعلمه، وصرت أنتبه إلى كل إشاراتِهِ، وأحفظ تعليماتِهِ، وأندمج مع شروحاتِهِ.

أراد أن يطبعني كحروف فوق أوراقهِ، لكنني رفضت وقولت له يا أستاذي العزيز أنا لست حرفًا أو كلمةً أو رقمًا، ومن هنا صرت

متمردًا؛ قرر عقابي ولأنه لا يستخدم العصا فرأى أن أفضل وسيلة هي القطيعة.

وتراوحت فصول كثيرة ما بين الخصام والهدنة، وحتى يوم تفوقني لم ينظر إليَّ بعين الرضا.

لا بأس فأنا أقبل رأس ويدٍ مُعلّمي كلما أراه؛ فلولاه لم أكن لأعرف حروف الهجاء.

أما عن علم الحب فتذوقته في قصائد الشعراء، وشطحات المتصوفة، وروايات الأدباء، وطلبته لدى أساطير العشق ومجانين الغرام.

تعمقت كثيرًا في هذا العلم، حفظت رموزه وطلاسمه وشفراته، اطلعت على أكثر مما ينبغي من أسرارهِ، وهذا خطأ عظيم أن يكون التلميذ بلا أستاذ يُرشدُهُ.

لكن ما ذنبي فلقد بخل عليَّ مُعلّمي؛ فقررت أن أدرس بنفسي وأصير أنا التلميذ والأستاذ، فصار عقلي حيًّا وقلبي غضًّا ونفسي شاردةً، وهذا مزيج أدعو الله ألا يتليكَ إياه.

وبعدما أفنيت عمرًا في البحث والتذوق رأيت أن الحب يكون لكل شخص وليس الحب لأي شخص، لأنني أومن أن التعلق بالمحبوب درب من العذاب، كما أنني لا أحب نفسي كثيرًا.

لا تقتدي بي يا عزيزتي واختاري بعناية البئر الذي منه ترتوين، ولتكن أعماقه نقية حتى تشاهدي انعكاس وجهك فوق مياهه العذبة، وإذا لقيت يومًا مُعَلِّمك القاسي فقبلي وجنتيه فربما يتعلم من قُبُلَتِكَ معنى الحب؛ فعظمة الإنسان تظهر في مبادلة الكراهية بالحب، والغضب بالصبر. لا أتوهم مدينة أفلاطون الفاضلة؛ بل أعيش وفق قناعاتي وعواطفِي، وأتفهم عيوبِي ونقائصِي.

لا تستعِضي عن الحرمان بالسقوط في حب مُعلم آخر من العُمر نفسه، قد يدفع الظمأ الشديد الإنسان إلى مطاردة السراب، لا تداوي الفقد بفقدٍ آخر قد تكتشفيه بعد استئْشاء العلة، تخلصي من عقدة قلبك قبل الاندماج، ولا ترتضي بنصف حياة، بنصف شغف، أو بنصف حلم، حتى لا تقضي حياتك بحثًا عن النصف الآخر.

إن معالجة الفجوة بداخلنا تحتاج إلى فهم أسبابها بتجرد والاستعانة بالعقل وامتداد البصيرة، لا تركبي مثل أخطائي اللعينة واحلي يا عزيزتي بين الأحضان الدافئة، وقلبي يركك مع أشبالي؛ فأنا لا أملك على قلبي سلطاناً، وأما خطابي الأخير فقد يصلك بعد زمن ليس ببعيد، حينها سأكون بعيداً عني، بعيداً عنك، وبعيداً عما يقيدنا؛ لربما أستريح في التجوال والغربة.

أعرفين يا ورد أحب محادثة الغرباء عن الأصدقاء؛ إذ يعطينا الغرباء مساحة واسعة للاعتراف، التقط الناس أحياناً في سيارتي لنخوض حديثاً عن هموم وأفراح الحياة، ثم أكمل طريقي وحيداً، لا تضحكي فربما أنا غريب لكن لا يجب أن يعرف أحد عن غرابتنا أكثر مما ينبغي.

تعلمي أن تعبري عما بداخلك، وإذا شعرت يوماً بعبء ثقيل يداهمك فاكتبي خطاباً في أثناء حلمك، واقدفيه من نافذتك الصغيرة المظلة على عالم الأسرار؛ ليلتقطه أحد الغرباء، وربما أكون أنا هذا الغريب.

الموسم الثامن

اختفيتِ عن أنظاري يا طفلي وما زال بي شوق الغريب إلى بلاده
البعيدة، أكتب إليك بعدما منحني نسيم البحر أنفاسًا نقية أراحت
قلبي المكثوم؛ لأستمر في الكتابة عنك وإليك.

أناجي البحر وأمواجه التي ترتطم بصدري ليخبرني عن حالي وحالك،
وأدعوه إلى أن يخلصني من عبودية الحيرة، وأن يطلقني مع أمواجه
العاتية بلا رجعة إلى الشيطان، ناديته بأعلى صوتٍ وفي المرة الثالثة
عاد الصدى مثقلًا بدموع البحر؛ ليحكي لي عن قصة فتاة وفتى على
الشاطئين البعيدين المتقابلين.

وُلدت الفتاة في أرض الحضارات حيث ترتقي الجبال إلى العلاء؛
فتلتحم بالسحاب وتناطح السماء، وتفيض الوديان بالخير والنماء إلى
أن انهار السد وتشردمت الحضارة إلى قطعان، وعادت البلاد إلى سيرة
الجاهلية الأولى.

رحلت الأم الحنون وتركت فتاتها بلا دفء في مواجهة صقيع متعجرف
على طفولتها البريئة، عندما ترحل الأم يجف ينبوع الحياة ومهما
أطلت أيادٍ غريبة بالسقاية والاعتناء، لا أحد يستطيع أن يعوض
وردة صغيرة عن حضن راعيها، الذي أسكنها بين حنايا ضلوعه لينبثها
في الحياة، انطلقت البذرة بشغف لتخترق الأرض الصلبة؛ لكي تسمو
إلى نور الشمس الجموح تشتاق إلى قبلة شهية ولمسة حانية وأنفاس

تغترف عطرها البديع لكنها انبثقت في فصل الشتاء حيث تُدفن الأحلام تحت الثلوج، واشتعلت بداخلها عواطف سخية تقمها ولو قليلاً البرد القارس، وظهر في الأفق حب خافت يتقمص ثياب الوداعة، طارت الوردة في شوق إلى ضياء الربيع الذي يطوف بالجمال على الأحياء، لكنه لم يكن ربيعاً؛ بل كان أشد برودةً وقساوةً من شتاء الطفولة، أطاحت عاصفته الهوجاء بالوردة من على فيها الممشوق إلى أراضي قاحلة مكحلة بالأحزان، وبكت الفتاة على وردتها الذابلة ولم يكن هناك من يجفف دموعها.

ولأنها نضجت في الصقيع فغابت عن رفقة باقي الورود؛ فكانت وردة يتيمة جميلة حمراء، تتحدى الأقدار الصماء، ولا يزهر في مثل هذه الطبيعة سوى ورد المحبة الذي لا يكثر بالفصول ولا يرضخ لتقلبات الأجواء؛ فأيفعت الوردة بالعاطفة، وتشربت بالرحيق الفواح، وأزهرت بالجمال الممزوج بشقاء الدهر.

لماذا؟

تساءلت الفتاة في غصة.. لماذا يصفع القدر وردتها بكل هذه الغلظة؟
لماذا يحاصر العنف كيانها المتأجج بالجمال؟ لماذا تسقط ذابلة قبل
الأوان؟

يا ليت تلك الفتاة تسمعني فأخبرها أن تغرس وردتها في حدائق الحب
حيث تخلصها من أشواك تحاصرها؛ لتتألق كأميرة بين الورود
فتستمتع بنسمات العشاق، وتطرب لألحان الهوى، وتراقص مع
تهديدات الغرام التي تموج حول عنقها الرقيق المنتصب في مجد أنثوي
عظيم. لا تقبلي يا فتاة بشعاع يزور وجنتيك كل شهر فأنت
تستحقين الضوء كل نهار، والغزل كل ليلة، وتستحقين نصيبًا من كل
شعاع يشرق على جنبات الأرض. لا تقبلي بلحظات مؤقتة من
السعادة فإن الكآبة رفيقة الوحدة، فانتقلي إلى ساحات الغرام حيث
يطوف العشاق حول جواهر الأزهار، ولا تجزي ولا تيأسي واخلي
نقاب القنوط، فمن أنبتك من العدم قادر على أن ينبتك في الوجود.

إن الله عادل لا يظلمنا؛ بل نحن من نظلم أنفسنا بعجز عقولنا
وضعف نفوسنا، فانصرفي يا فتاة إلى الحياة بحلوها ومرها، ولا
ترضي إلا بما يرضيك ويشعل داخلك.

أما فتى الشاطئ الآخر فحدثني البحر عن حكايته الغريبة، أنشأه
القدير بعلة في النفس في ظل كيان فريد يحسده عليه الأقران،
يظنونه يتقلب هائناً على فراشه الوثير، ويغزل أحلامه في دعة
وسكون، أراد الله أن يمتحنه بين الشهوة والطهارة، ليخوض صراعاً
بين نقاء الروح وملذات الجسد، ويختبر الضمير في ظلمة الدنيا
وأطماعها، فكيف يمكن لذرة غبار أن تستقر في أوج ربح عاصفة ترحُّ
جبالاً وتدفع تلالاً إلى الهاوية؟

استطاب العزلة برغم تعدد الرفاق، أراد أن يسكن السماء هرباً من
أرض تكاد تخلو من الإنسان، مال إلى الزهد برغم كثرة التلاهي؛ تارةً
يسير مع الرغبة، وتارةً يطأ بقدميه رذائل المادية القبيحة، استغرق في
الخير ورق قلبه لحال البؤساء والتعساء فأحرق صدره شعور الرثاء،
أراد أن يزيل كل آثار التعاطف من قلبه الرقيق الذي يرتجف من
الظلم والكرهية والعنف، لا يريد أن يكون غريباً وسط الجموع،
يتمنى أن يكون تقليدياً يزيل بمعوله كل الحواجز في طريقه المتعرج.

تظاهر بقشرة صلبة ليخفي براءة قلبه ونباله أخلاقه من غدر الأيام،
حطم الدهر مقاومته العنيدة، وحوّله إلى روح جواله وركام جسد
طعنته الجراحات، لم يهتئ بصبايته إلا بنزوات لم تشبع نفسه
التواقفة. وها هو يهدر شبابه بحثاً عن كنز مفقود بين ترائب البشرية

الحمقاء، خاصم القدر دهرًا لنفاد صبره ويأسه من ثمالة أحواله،
وبرغم أن قلبه يطوف حول حواف العرش إلا أن أقدام القدر
سحقته. في كل مرة أراد المُقام، لكنه كان نقيًا وسهلاً في الخصام.

ولما أراد أن يمزق حجاب البراءة ليلهو بالشهوات؛ ساقه القدر إلى
طريق راهبة مقدسة، قد أضلت العلامات، يرتسم على ملامحها وقار
وفتنة تذيب الألباب، ينبع جمالها العميق من نفس زكية مشبعة
بجوى ولوعة، يذخر عقلها بحصافة تفوق عشرات الرجال، وتحوز
بين طياتها أمومة شفوق ترعى بمهجتها مخلوق رقيق يركض في مراعي
الغربة، وأنقذتهما الفضيلة من ضلالة الطريق إلى تفرق الأحياء
وتشتت الأسباب.

يحرمننا الله ليمنحنا ويمتنعنا ليُعطينا، ولكننا قاصرون عن الفهم
ومنغلقون في ذواتنا الضيقة.

الهدس التاسع

كيف أنتِ يا ورد؟ وكيف حالكِ يا صاحبة المقام؟

أتعلمين يا طفلي أن أعظم ما خلق الله على هذه الأرض؛ الروح، والحب، والليل، ولنا في تأملهم عظات وعبر لا تعد ولا تحصى.

أما الروح فهي الكائن الأسى الخالي من الصفات، المتسامي عن الأيادي، والمحجوب عن الأبصار، سرُّ أثري وضعته الحقيقة الأولى في الإنسان لترين كينونته الفانية، ولتعبُر به من عالم الماديات إلى عالم المثل وما وراء المحسوسات، فلولا الروح لكان البشر ماكينات عضوية بلا حلم وبلا عاطفة وبلا إلهام.

مشكلة الإنسان بهذا الزمان أنه يظأ الروح في سبيل جشعة ولذاته الجسدية الشبقة، وكلما ازدادت رغباته اشتدت معاناته؛ فلا تستقيم كينونة الإنسان إلا بتوازن دقيق بين الروح والجسد، ولا ترتقي إلا بعلو الروح عن الجسد؛ وهذان الأمران يتطلبان صراعًا داخليًا فتاكا لحسم الأمور.

ترتبط الأرواح بقوى تجاذب بترددات لا شعورية محجوبة عن حواسنا؛ فتلتقي الأرواح المتجاذبة، وتتعانق لتنسج غلافًا من الحب يحيط بالأفئدة، فتتمد جسور أزلية تربط القلوب بالقلوب فتغرق في الغرام والهيام.

هذا هو الحب الحقيقي يا معذبتني، حب الأرواح حينما تتمازج وتتحد في كيان روحي واحد ينبثق منه جسدين مترابطين، عندما يلتقيان ينغمران في نشوة الحب الأزلي، وهو كنز إلهي وضعه الخالق ليُعَلِّم الإنسان الخشوع في حضرة الجمال المقدس.

يمنحنا الحب الروحي ما لا يمكن أن نكتسبه من خلال حواسنا، يعلمنا الارتقاء والنقاء والتضحية والبذل واللدانة والتخلي عن الأنا، يدرينا على الصبر والجلد، يذيقنا لذة السعادة والفرح، يُضفي علينا الشوق واللوعة، يمنحنا طاقة روحية تُمكننا من صناعة المُحال ويؤمن علينا بأجنحة ملائكية تحلق بنا بعيداً عن النشوز البشري.

إن مَعِين هذا الحب لا ينضب ولا يجف مع توالي الدهور أو انحجاب الأنفاس، وليست كل الأرواح قادرةً أن تغترف من هذا النبع الإلهي الذي يجردنا من ثوبنا الإنساني إلى مصافي العلوية، إنه حب لذات الحب وهو في ذاته اللذة الأبدية كصيرورة الفردوس الأعلى، فنسكر بخمرة الخلود من كأس الفناء في ذات المحبوب، فتسكن الأرواح ما وراء الغيوم ككائنات سماوية تشع بريقاً وهيبه.

إن لمسة من هذا الحب تُحيل الجبابة الأكاسرة إلى أطفال صغار يفرحون ويبتهجون ويشتاقون في خشوع، وتهتز عروشهم الحجرية، وترتجف تيجانهم الصماء؛ فيذرفون الدمع ويتلون أشواقهم أمام

الشعوب والحاشية. وإذا تلبس هذا الحب صنم حجري يجعله زنبقة
بيضاء تتمايل في خضوع مع النسيم المقدس، وإذا غزا قلبًا بربريًا
ساكنًا في أطراف البرية يصير قلبه عاشقًا شاعرًا غنائيًا، وعازفًا
لألحان البراءة والوداعة الإنسانية.

نتذوق من هذا الحب أقاصيص الهوى وأساطير العشق، فنعود
بالزمان إلى الورا لتلبس بمشاعرهم ونستشعر أشواقهم ونواسيهم
في نوازعهم ونعترف بحقيقتهم السرمدية التي صمدت عبر صروف
الدهور ونوائب الأزمان.

يُنبت هذا الحب القلبَ فيخضّر ويزهر ويثمر بفاكهة أبدية لا تعطب
ولا تفسد، فكأن الربيع حارسه الأبدي من غدر الشتاء وملل الخريف.

وهناك نوع آخر شائع بين مخلوقات الأرض هو حب الغرائز، وأنا
أدعوه نزوة الامتلاك؛ فلا يليق أن نُلصقه ظلمًا بالحب حيث تجتمع
الحواس في بوتقة الغرائز الجسدية وترتبط بخيوط واهية تحت تأثير
الرغبة، فيخيل لرواد هذا الشعور أنهم وصلوا لنقطة الارتواء حتى ما
تنحل الخيوط عندما تخفت الرغبة، ويسود الملل الانعطاف المشوش
فينهار الوجود المنتصب من العدم.

هو قائم على نزوة تُلهب الجوارح، فتثير المشاعر ولا يصل بصاحبه إلى الارتواء أو الفناء، وغالبًا ما يغادر بامتلاك المحبوب أو غياب الوصل، فهو وليد نظرات وابتسامات ولقاءات، فيفتى بالفراق تاركًا أثرًا مؤلمًا على النفس يزول بمآل الأيام وإن استمر على ظهر الحياة فمصيره إلى اعتناق التراب والانحجاب وراء السنوات؛ فهو كشجرة خضراء تسر الناظرين، جذباء لا تسد رمق الجائعين، فلا ينالون منها سوى التشهي ولا يلقون سوى الحرمان.

إن معظم المتشدين في زمننا من رواد هذه النزعة هم أنصاف عُشاق يعزفون أنغامًا هزيلةً، ويلوكون كلمات عاطفية بأبجدية ركيكة، ويفتشون في جيوب الشوق عن خيالات تريح غرائزهم الهائجة، وعندما تفشل محاولاتهم اليائسة لبلوغ المراد يصبون لعناتهم على سيرة الحب العذري ونبالة العشق الروحي، فكم أشفق عليهم لضعف مداركهم وتشوش مقاصدهم!

إن المرأة في مشرقنا مظلومة في الحب يا ورد، ينظمون لأجلها القصائد ويُعزفونها بأبيات الغزل ويصدقون لها بالأغاني، ثم يُحرّمون عليها الحب ويرجمونها قهراً إن أقرت الحب، وينالون من شرفها إن طلبته، يجهل هؤلاء أن حواء خُلقت لتُعلّم آدم الحب وتجوّد عليه بالمشاعر، فمن أظلم ممن منع قلب امرأة عن حبيبها.

أما عن الليل يا غزالي فهو تجلٍ لعظمة الجبار أمام عباده، حين تعود الحياة مستسلمة من صراعاتها النهارية إلى الثكنة الأرضية، وتبقى مخلوقات السماء مع الوحيد تطوف الوديان والتلال والجبال الخاضعة الخاشعة تحت أقدام الليل.

في الليل تنطلق الأرواح من سجونها الجسدية، وتحرر من ثقل قيودها الإنسانية، وتختمر النفوس بخميرة قدسية، وتهرب الأفكار من كهوفها المظلمة، وتلمس البصائر بنور الله ما لا تدركه الأبصار؛ فتُصنع المعجزات ويظهر المستحيل من العدم ويندفع الإبداع من العجز، وتُصنع الأبحار في جوف الظلام؛ لتعانق السكينة الأبدية فنرحل معها إلى ما وراء الليل وإلى ما وراء المحسوس، وتزورنا الذكريات مُعبقة بعطر الماضي الجميل فتُشعل بداخلنا الحنين.

نطارده العتمة في الشوارع والأزقة فنلتقي بأرواح لا يمكن أن نلتقيها تحت ضوء الشمس، نتصافح نتسامر قليلاً ونلقي باعترافاتنا الشاهدة على صدقنا فلا أحد يكذب في حضرة النجوم المضيئة اللامعة في الفضاء الفسيح، فألسنتنا صامتة وشفاهنا مغلقة ونحدث بالصمت.

يزيل الليل نقاب الزيف فتسترسل النفوس في الشكوى تحت ضوء
السراج السايح في السماء، لتتطهر من آثامها ولما يضح الليل بالشكاية
والنحيب، يغشى القمر بنقاب هزيل ليرتاح قليلاً من آلام البشر، وما
يلبث أن يعود ليمارس وظيفته المعتادة في الاستماع لاعتراقات بني
الإنسان.

أما أنا يا حُلوتي أركض في رحاب الدُجى، ألاحق الأحلام، وأطارد
الأخيلة، وأتلصص على خوالج النفوس؛ لأستبين أمر رعايا الشوق،
أهرب بكِ إليكِ وأشكو أشجاني ولوعتي بالغرق بين أجفانك، لأجلكِ
أصعد إلى مصابيح السماء وأنزع أجمل نجمة لأضعها بين راحتيكِ
الناعمتين وأقبل أناملك الحريية. وعندما تتسلل الخيوط البيضاء
إلى عيني تثور أجفاني فأستسلم إلى فراشي، وتضع معي أشواقِي،
أظل أحادثك حتى ينتابني الوسن، وفي أحيان كثيرة يمتد حديثنا
البسيط الوديع إلى مطلع الصباح حيث تتهار الكلمات تحت سياط
الإرهاق.

تنجو الناس من الهم بالنوم وأنا أنجوبكِ في عُتمة الليل؛ لأنكِ فيه
مؤنستي.

واليكِ قصيدة محببة عن الليل بقلم صديقي الصدوق صاحب
"الفوضوي"

في الليل تزدحم أفكار النهار برأسك..

تلعب بعقلك.. كدمية.

تؤرجحها يمنة ويسرة..

هل كان يومك لطيفًا؟

هل مرتبك سيصمد حتى نهاية نوفمبر..

وكل المراثي تجول بعقلك كابن بطوطة

في الارتحال..

مستقبلك القريب الذي يبدو بلا ملامح..

يطل برأسه من خلف الجدار المقابل لعينك..

وماضيك يغسل أسنانه ويجهز منامته..

ويضجع جانبك على الوسادة..

ويجعل نومك صعب المنال..

تنظر لساعة الحائط وتسمع دقات العقارب..

وهي تستريح على الرابعة فجراً..

وفجأة تنفض عنك لحافك..
وتقرر أن شاي الصباح جميل..
بجانب رغيف خبز محمص.. محشو
ببقايا . فول مثلج.. منذ أمس..
لكنه لذيذ حد الخَبال..
يلبس سترته وبنطالاً قديمًا..
ويذهب بجولة في الشوارع الفارغة..
إلا من كلاب الليل الحزينة وبعض القطط..
ويصرخ على بقال ينزل باب الدكان..
انتظر.. اعطني علبة سجائر..
فينظر إليه بحنق.. ويلقي الدخان بيده..
فأشكره أنه لم يفسح..
لصداعي المجال..

أشعل لفافة التبغ وأتمشى في شوارع

مدينتنا العتيقة..

تمشي وحيداً ليلاً.. فلا تسمع

سوى صوت الديوك تؤذن قبيل الفجر..

مبشرة بنهار صبح..

الظالم نائم كطفل وديع..

ربما يحلم أنه ملك العالم..

وربما يفرغ على كابوس معلق فيه..

كذبيحة في الميدان..

ترجمه النساء قليلات الحيلة..

وتعلق الصبية في ذيله حبل من ورق..

وربما يهجره النوم.. ويعاني الأرق..

لكن الحقيقة الوحيدة..

أن كل الشرور نيام..

وأنت وحدك ملك الشوارع..

والصدي رسولك لأذنيك..

يحدثك بكلامك أنت..

لا أحد هنا يسمعك

سوى الوحيديين مثلك..

قاطني الأرصفة..

كل طموحاتك وخطط الحياة

تدوب فجأة..

في خيط نور يطل من بين الأزقة..

من بقايا مصباح قديم..

يؤرجحه نسيم الفجر.. حتى احترق..

لا مدير يُملي عليك الأوامر..

ولا صاحب يعاتبك عل قلة سؤالك..

ولا أخ يأكل ححك جهازًا.. كأنه إرثه..

لا خوف من المستقبل..

الكل سواسية الآن.. الكل نائم كحمل وديع..

المُفْتَرِي والمُفْتَرَى عليه..

لا فرق سوى في نعومة الوسادة

وملمس الفراش.. حرير واستبرق..

لكن ماذا إن ظلوا في أحلامهم غارقين..

وظللت أنت الحي الوحيد؟!

لكنك تلمح من بعيد العم سيد..

يجر عربة الفول بيده..

معلنا بزوغ الصباح..

فتنسى كل تخاريف ليلك..

مع أول قضة من شقة الفول المحوج..

تسكت فيك كل الخواطر.. وجوع عتيق..

استمر ليلة.. تمشيت فيها وحدك..

ولحم بطنك يزقزق..

فانطلق الخيال فيك يفلسف معاني الحياة..

والحق أنك فقط كنت جائعاً.. تنتظر عم سيد لتسد الرمق.

الهدس العائش

اشتقنا يا ورد فأخبرنا عن حالك.

أحب عنادك فأنتِ صلبة كصخر بلادك، وأنا لين كطين بلادي فهلا
نعادل كفتي الميزان ولو قليلاً.

أعرف أن صلابتك ممزوجة بخبراتك النفسية السابقة، لكنك الآن
في حاضري وشغاف قلبي لدنة هادئة، فاتخذتها مسكنًا وتريضي في
حدائق روحي، لقد افترشتها لك بالرياحين والياسمين منذ سنين،
ووطدت فراشك الوثير قرب جداول الأنهار فتوضئي بماء الحب،
وتعبدني لصانع الحب، وحدثيه عما في قلبك بلغة الحب، وانثري في
الصباح بذورك العذبة قرب غدير المياه؛ لينبت الجمال الرباني الهائم
من بين راحتك، واسكبي رونقك البديع على ثنايا قلبي ليصير دمناً
وديحاً مضيئاً بسراجك الذي لا يخبو.

أحب بنيانك الفكري؛ فهو صلب متماسك ومنتظم من لبنة من ذهب
ولبنة من حديد، تُعجِبني أفكارك الجريئة المسبوغة بالطموح
والمُفعمة بالحرية والرُقي؛ إذ تناسب من عقل حر متشابك مع أنوثة
لطيفة، يقولون إن المرأة لو عزمت، تستطيع أن تدك حصوناً
حصينةً بنظرة عينها وألق ذكائها.

ينقصك يا طفلي القليل من الاطلاع والتفاني في تذوق الحكمة والخبرة، التي تهمر من أمهات الكتب ودُخر العظماء؛ كي تبجري في ليج النفوس وتشاهدي عجائب الحياة، كما أنك مترددة بعض الشيء ولا تستطيعين التحكُّم في إحساس الخوف الذي يغالبك فتفقدين قدرتك على صُنع القرار، تمردي يا ورد على ماضيك على حاضرِك على أواصرِك التي تُطوقك بالحصار، لا نجاة إلا بالإرادة، لا نجاة إلا بالتمرد، لا نجاة إلا بالثورة على النفس.

انقذي نفسك يا صديقتي من أنياب المصير وحوافر الغيب، اصنعي واحتكِ الجديدة، ولا تهتمي بأحاديث العوام ولا تلتفتي إلى لغوهم الباطل، أنتِ وحدكِ أمة من الجبابرة العظام، فلا تبكي على ما فات ولا تدلي الماضي على ثغرة يتسرب منها إلى ذاتك.

أريد قبل الختام أن أستشيرك في مسألة لثقتي في راحة وفضونة عقلك، عندما يحزن رجل لفراق امرأة هل تلك الدموع دلالة على الشوق أم رغبة في النوال؟

وهل يصبح الشوق مُلحًا إن ظفر المُحب بمحبوبه؟

وهل يسعد الإنسان إذا نال أمانيه وحاز رغباته؟

وسؤالي الأخير: عندما تخمُد الغيرة في نفس امرأة فما العلة وراء هذا؟

الهدس الحادي عشر

ابعثي يا ورد برسالة يتيمة وحيدة نادرة مقتضبةً تخبريني فيما عن أحوالك.. وسأظاهر بأن هذا يكفيني.

إن مشكلتي الأزلية يا رفيقتي، أنني أبحث عن المعنى الحقيقي للسعادة ورغم جهلي بماهيتهما وجوهرها، إلا أنني أنساب في تلك الحياة لأقطف ما أستطيع من تجارب ومواقف وأحداث، ولا أتوانى عن بلوغ الصعاب لأنال قسطاً من هذا العنصر الأثيري الغريب.. فما أنال شيئاً.

انتابتي يوماً فكرة ملحة أن أتلحف بأزياء الأثرياء، وأذوق مآلهم في الحياة، وأفتش في جيوبهم عن سعادتهم الأكيدة، فقررت أن أنخرط في سهرة من سهراتهم الشيقة حيث تخضع النفس للمبهجات والملذات، طلبت من أحد أصدقائي من هذا الوسط حضور سهرة ماجنة لأستطلع أحوال العباد في حضرة الكأس.

تعجب صديقي فهو يعلم أنني لست من هواة السهر أو السمر، ووافق بعد الحاح وأبلغني بموعد الحفل القادم ووعدني بلبلة لا تُنسى وأوفي صديقي بوعده.

الساعة العاشرة مساء من ليلة الخميس، تراجلت من سيارة صديقي أمام أحد البواخر النيلية الفارهة في حي الزمالك العريق.

صعدنا عدة درجات حتى وصلنا إلى باب خشبي فأشار إليّ بالدخول، دفعت الباب ببطء ودلفت أتربق، جال بصري في المكان سريعاً، شعرت بأنني أنتقل إلى عالم موازٍ.

ظلام دامس تتخلله أضواء تنوهج، ثم تخفت، ثم تعيد الكَرَّة من جديد؛ فتتحرك في الأرجاء كافة ترسم أشكالاً على الجدران وتشاغل عيون الحاضرين.

لا يعلو صوت فوق الموسيقى التي حاصرت المكان وأوقدت الحماسة في عضلات الراقصين، تسمرت قدمي عند الباب شعرت بثقلٍ في أوصالي وبرودة في ظهري، لم أستطع أن أتقدم أو أن أتراجع وتمنيت حينها أن أهرب.

دفعني صديقي ببطء تجاه طاولة مستديرة يجلس عليها مجموعة من أصدقائه، استسلمت له وتحركت ببطء حتى وصلت إلى الطاولة ألقى التحية وصافحت الجميع وجلست بحذرٍ وأنا أرتعش.

تسارعت نبضات قلبي، تساقطت قطرات العرق على وجهي، سألت نفسي ما جاء بي إلى هنا؟ نعم، تذكرت إنه الفضول اللعين.

بدأ صديقي يُعرفني على الجالسين؛ مهندس أحمد ٤٥ عامًا وأحد عمالقة المقاولات المشهورين في مصر.

نادين ٣٦ عامًا إعلامية مرموقة في قناة فضائية شهيرة.

مراد ٤٨ عامًا ممثل خفتت نجوميته منذ زمن.

وأخيرًا مايا ٥٨ عامًا سيدة مجتمع.

غادر صديقي الطاولة بعد لحظات التعارف السريعة يتجول في أرجاء المكان مُرحبًا بباقي أصدقائه.

شعرت بالظمأ الشديد، دارت عينيائي في المكان، تفحصت الجميع؛ عشرات الرجال والنساء على الطاولات الكل منهمك إما في حديث أو شراب أوركص.

تُقرع الكؤوس، يغزو الدخان المكان، تُطرب الأذان ضحكات أنثوية لعبوة. تتألق نساء فاتنات في ملابس مثيرة تكشف عن أنوثة طاغية تُسجر ألباب الرجال.

لا فواصل، يتبادل الأصدقاء من كلا الجنسين التحية بالقبلات والأحضان، أدركت حينها بأنني وحيد بلا أصدقاء.

عادت أنظاري إلى رفاق طاولتي رأيتمهم مندمجين مع الأغاني، تهتز أجسادهم بشدة مستثارة من إيقاع الموسيقى، لا يتوقفون إلا قليلاً لاحتماء الشراب، عرفت فيما بعد أن كل هذا ما هو إلا تجهيز لمباريات الرقص التي انطلقت صافرتها عند منتصف الليل تقريباً.

رقص الجميع بجنون، اختلط الرجال بالنساء، تمايلت الأجساد في ليونة، تبارت النساء في إشعال الحلبة، يرقصن في نعومة تهتز مفاتهن المثيرة فتشتعل الثورة بباطني.

سبحانه سبحانه الذي صاغ السحر في صورة أنثى قادرة على أن تحرك رجالاً ظننا أنهم جبال.

شعرت برغبة دفينة في الرقص لكن يقيدني عقلي، أردت أن أرقص ثم أرقص ثم أرقص، وبعد ساعة كاملة من الصراع النفسي انتفضت لأرقص وسط الحشود، كنت كأبله الذي يرقص رقصة الدراويش في ساحة المواخير، وبعد أقل من ربع ساعة تقريباً انسحبت خجلاً وبقيت طوال ليلتي ملتصقاً بمقعدي أطلع الراقصين، وبعد ساعتين

تقريبًا من الرقص المتواصل هدأت القاعة، استقر الجميع على الطاولات مُهكين من الرقص والخمر.

تنهت إلى صوت صادر من طاولتي، رأيت أحمد حوت المقاولات يئن ويتمتم بصوت مختنق وعبرات منهمة وكلمات متقطعة...

زوجتي تريد الطلاق.. هكذا صاح بصوت عالٍ ثم سكت.

أطبق الصمت على الجالسين شاهدتهم يحاولون بكل جهد استعادة أذهانهم التي عصفت بها الخمر، أصر أن يكمل حديثه ودموعه لا تتوقف.

بعد عشرين عامًا من الزواج كنت فيها زوجًا مخلصًا عاشقًا، لم أدخر جهدًا أو وقتًا لإسعادها، لم أرفض لها طلبًا، لم أؤخر لها أمرًا، أعدت عليها بالأموال وسافرت بها إلى معظم بلاد العالم.

أعشقها إنني أعترف ولا أخجل، أذوب في ابتسامتها، نظرتها، وإطالاتها، وجودها بجانبني يطمئني، تمنحني ضحكتها الأمل، تُشعرنني أنوثتها برجولتي، تحوم صورتها حولي أينما كنت، والآن تريد بكل بساطة أن تنزع عني طوق النجاة.

تقول إنها لم تعد تشعر بالسعادة معي، قُلت لها سأغير كل شيء،
وأكون الرجل الذي تريدون وتمني ما تشائين وإن كان مُلك سليمان
سأتيك به.

فأجابتنى بكلمة واحدة.. الطلاق!

رجوتها أن تبقى وتمنحني فرصة أخيرة إن لم يكن لأجلي فلأجل
أولادنا.. رفضت.

بصرخة مفزعة وصوت أنثوي حانق أخذ يردد لا تبيك.. لا تبيك؛
فالرجال لا يكونون. قالتها نادين وانفجر وجهها غضبًا.

لا أحد يستحق، أكملت نادين حديثها وهي تنظر إلى أحمد بنظرة حادة
ممزوجة بالشفقة ثم تابعت، كنت زوجة مثالية بعد قصة حب
أسطورية رغبت فيه من بين الجميع، أردته زوجًا وأبًا وأخًا وسندًا،
منحته قلبي وعقلي وجسدي، وجهزت له فراشًا ساخنًا متجددًا لكي لا
يشعر بالملل يومًا، وأبدعت في فن الغواية حتى لا يلتفت إلى امرأة
غيري، لكن هناك رجال لا يعشقون سوى الحرام!

لا تبيك.. لا تبيكِ كررتها نادين وهي تختنق، ثم صرخت أن النهاية معروفة فراق أو طلاق، فاعتد الوحدة فهي خير أنيس وأصدق جليس.

هدأت بعد هُنية وأسندت ظهرها إلى مقعدها تحاول تهدئة أنفاسها والسيطرة على دقات قلبها المفطور، تكتم دموعًا لم تسقط بعد.

انقبض قلبي مع كلماتها المتساقطة على أذنيّ، شعرت بأن أنفاسي مُترددة، حاولت أن أنطق لكن الحروف محشورة في حلقي، فأمسكت بتلابيبي وفي جملة واحدة مزقت حلقي تمزيقًا قُلت لها إن الوحدة مؤلمة.

نظرت إليّ بحدة وأجابتي في سخرية لكن الخيانة أشد ألمًا، أفحمني ردّها ولم يجرؤ لساني أن يتحرك من مكانه.

تدخلت مايا في الحديث وابتدأت من حيث توقفت أنا، إن الوحدة قدر لا مفر منه سواء اخترناه أو فُرض علينا.

تابعت كلامها بينما تنتقل بأنظارها بين الجالسين، زوجي العزيز توفي منذ سبعة عشر عامًا، فقدت شريكي وسكني وأبا أولادي. واجهت الحياة منفردة، مكسورة القلب، ممزقة الفؤاد، عانيت ما عانيت

لكنني تشبّثت بالحياة لأجل أطفالي، وبعد أعوام شعرت بأن شبابي يذبل وأنوثتي تتساقط، لا أكذبكم خبرًا شعرت بفراغ يبلعني وأردت رجلًا يصوغني أنثى من جديد.

أطلعتُ أبنائي على رغبتي في الزواج جاء الرد مزلزلًا برفض قاطع وحاسم، رفضوا أن يحل رجل محل أبيهم أو أن تتشارك أمهم السيرير مع غيره.

حاولت إقناعهم بشقي الطرق لكن بلا جدوى، أخذت أتراجع وفضلت أن أدفن أنوثتي فداء فلذات أكبادي.

إلا أن ظهر من بعيد رجل في حياتي أخذ يغازلني، يلاطفني، ويشعل الحياة في أعماقي، أيقظ الفتاة بداخلي، وترنحت كعذراء تذوق الحب لأول مرة.

حاولت أن أقاوم وأقاوم وفي النهاية استسلمت، تزوجته رُغم أنف أولادي؛ فهجروني، قاطعوني، وتبرؤوا مني، استعوضت بفارسي عن الدنيا وعُدت أتوهج من جديد بعد أعوام من مرارة الفقد.

لكن القدر يعاقبني مرة أخرى، لا تسألوني لماذا يعاقبني فلا أدري.

لقدت سألت نفسي كثيرًا ماذا صنعت لأتجرع كل هذا العذاب؟!

واستيقظت يوماً على رحيل فارسي واختفاء أموالِي.

المال.. المال.. المال، ردها مراد ثلاث مرات وهو ينظر إلينا. إن المال هو اللعنة الأبدية.

في مطلع شبابي كنت ممثلاً مرموقاً تحاوطني أسراب المعجبين، ويتغنى الجمهور بأعمالي.

ذاع صيتي، برز نجمي، أصبحت فتى الشاشة الأول ومعشوق الجماهير، وغمرني الأموال من كل حدبٍ وصوب.

تمرغت في النعيم وامتلكت الدنيا؛ ثروةً، شهرةً، صحةً، وزوجةً، رقيقةً، حتى كدتُ أشعر بأنني إله.

لكنه كان ينقصني شيء واحد فقط، قالها مراد ثم صمت لبرهة يحاول التقاط أنفاسه.

أردت أن أكون أبًا، رغبت في أطفال من صلبِي، لم تستطع أموالِي أن تحقق لي حلمي، فدعوت الله أن يأخذ أموالِي ويعطني طفلاً.

شعرت بأن رجولتي ناقصة، عرضتُ على زوجتي الطلاق فأنا أعلم مقدار حُبها للأطفال؛ نهرتني وبخّنتني واحتضنتني وبكت، وقالت لن

أتركك، لن أتخلى عنك.. أنا أحبك وسأظل بجانبك إلى أن يتوقف خفقاني، وأسمعتني كلام الغرام وهي تجذبني بشدة إلى أحضانها.

طلبت مني أن أرضى برزقي، لكنني لم أكن في أعماقي راضيًا، اندفعت في حياة الصخب استطبت أفعال الشغب، نثرت الأموال في أماكن المجون، عاقرت الخمر، وانتشيت من كل صنوف المخدرات.

صرت عصبياً همجياً أفتعل المشاكل وأعادي الجميع، كانت زوجتي بجانبني تحاول أن تنقذني من نفسي لكنها فشلت.

كان البساط يُسحب من تحت أقدامي رويدًا رويدًا، وأغلقت الأبواب في وجهي تدريجيًا حتى صرت منبوذًا مطرودًا من الوسط الفني.

نفد المال بعد سنوات من التبذير والبذخ، وتخلى الأصدقاء عني وأنكروني، وماتت زوجتي بعد صراع مع المرض ولم أكن أمتلك ما يكفي لعلاجها.

وبعد سنوات من الاختفاء عدتُ إلى التمثيل ثانياً، قبلت بأدوار ثانوية هامشية فأنا أتفهم أنني لم أعد بطلاً وأنني لم أكن في الواقع بطلاً، صمت مراد ومعه خيم الصمت على الجالسين.

إلا أنا، كنت أحداث نفسي دون أن تتحرك شفاهي، يا رباه إن حياتهم
بأئسة!

يتألمون، يعانون، ويكون مثل البؤساء والفقراء!

وأنا بالسخاقتي كنت أعتقد أن الثراء الفاحش يطيح بالروح فلا تبقى
إلا متعة الجسد المادية، ومع المادية المفرطة تتحول البشر إلى تماثيل
مُصمتة!

شعرت بأنني أحرق، تسربت مني ضحكة ساخرة أسخر فيها من
نفسي، حاولت أن أكتم ضحكتي ولكنني فشلت.

رفعت رأسي فإذا بعيون الناظرين تُصوّب سهامًا حاقدةً ضدي.

أنا أعتذر منكم ولا أقصد الإهانة أو السخرية.

لحقتني نادين لماذا تضحك إذا؟

لا أضحك بل أسخر من غبائي حقًا، فأنا أبحث منذ عقود عن معنى
السعادة ولم أجدها، حتى اقتنعت أن السعادة حتمًا ولا بد تسكن
جيوب الأثرياء.

فإذ أنتم لا تمتلكون شيئًا من معنى السعادة.. فأين السعادة إذا؟!

في الخمر.. صاح صديقي من خلفي.

ارتفعت ضحكات الجالسين عاليةً مدويةً، تزلزل المكان حيث اختفى على إثرها صوت الموسيقى الصاخب.

نظرتُ إلى صديقي وخاطبته منفعلاً، ليس ثمة سعادة في غياب العقل أو الهرب من الواقع.

وجدتها.. وجدتها، صاح مراد أنا أعرف أين السعادة، سألته في عَجَل أين؟

تأخر في الرد لبضع ثوانٍ ثم صاح في مشروب الريد بول خاصتك أيها الفيلسوف الأحمق.

انفرط الجميع في ضحك هستيري، تمايلت جذوعهم بشدة مع ضحكاتهم العبثية حتى اعتقدت أنهم سيسقطون أرضاً لا محالة، انتظرتهم حتى يفرغوا ولم يفعلوا.

شعرت بالضيق، فضلت الانسحاب واندفعت إلى الخارج سريعاً،
حتى وجدت نفسي على ضفاف النيل أستنشق نسيم الصباح النقي،
وسرت بمحاذاة النيل أقول لنفسي:

عجيب يا ابن آدم، تصنع الوهم وتصدقه وتؤمن به وتدعو إليه،
سعادتك الحسية وهم، متعتك المادية وهم، ودنياك الفانية وهم.

الهدس الثاني عشر

لعلمك يا ورد أنا غريب عن هذه الأرض، وفي جُعبتي مواقف أغرب لو أخبرتك بها لوصفتني بالجنون حتمًا ولا بُد.

لكن ما الفرق بين التعقل والجنون، فكل مجنون هو عاقل، وكل عاقل هو مجنون حسب من يخاطب ومن يستمع!

أنفر من هذه الحياة؛ لأنها أتت بي إلى عالم مختل عقيم مضاد لمفاهيم الخير والحق، يعرِّد فيه الفقر والجهل، يتغطرس فيه الظلم والعنف، ويتخفى العدل أمام عقيدة القوة، أتعجب من سقوطنا في هذه الهوادة السحيقة التي تحاصرنا بالمغريات والشهوات، وتُطوِّقنا بالمعاناة والنكبات، وتدفعنا إلى الصراعات.

وحق أوطاننا يا ورد التي ندين لها بالنمو تسحقنا بأقدامها، وتغتال أحلامنا، وتدفن شبيبتنا بين أطلال اليأس والعجز، وإذا هجرناها يعتل القلب بالحنين وتمرض الروح بالغرابة.

ما الذنب لنحمل إرث من سبقونا فتحنى ظهورنا هكذا، وتنكب عواتقنا وتضيع صبابتنا في لجج الأقدار التي تلاطمنا وتتقاذفنا من حال إلى آخر.

إن نشوتي في هذا العالم تكمن في تحصيل معارفه وأسراره فأدور في أفلاك الكتب، وأنقب في تراث المفكرين، ولا أنقطع عن تذوق الأدب والفلسفة؛ ففهم ما يلطف على النفس حسرتها، وفهم لذة تصعد بي إلى طيات السماء، كما أهوى التطفل بفضولية على أعماق الحياة الغائرة في نفوس البشر؛ حيث تنضج الطباع والأهواء والميول والرغبات المستترة خلف الصور، فخلف كل قناع حقيقة وجلة، وفي كل إنسان نعرفه إنسان لا نعرفه.

أما حديثنا السابق عن ذلك المجد الذي ينتظرنى في الأعالي ربما تتوق نفسي إليه، إلا أنني أهرب منه وجيلًا وأتحاشاه زهدًا، فمسار الصعود عسير وشاق ومُعطى بالكراهية والحقد ويتطلب أدوات التملق والتسلق والتزلف.. وأنا لا أمتلك مثل هذا؛ بل أتوجس أن يستبد بي الطمع فأمضي في تسلق القمم على حساب مبادئ.

إن مأساة الإنسانية تُشغلي وتربطني بمعاناتها علاقة خفية، فأنتشي من تخفيف آلامها بدلًا من الصعود على أكتافها، وهذه ليست مثالية مفرطة؛ بل علة في النفس زرعها أيادٍ خفية ولا أستطيع التخلص منها.

أما خوفي فمن نفسي على نفسي، فتلك الشهوة طالما أطاحت بالمنطق
وحجبت العقل وأصابت النفس بأفات خبيثة أعطبت الضمائر،
وأبادت بلاد وحضارات، وأفنت أممًا وشعوبًا.

إن المجد الذي أرنو إليه لا يتقاطع مع مبادئ، ولا يتعارك مع ضميري،
وينصبُّ على ارتقاء الإنسانية وتذليل صعوبات الحياة، أما غير ذلك
يُكنُّ مجدًا مزيفًا تذروه الرياح وتطمسه الأزمان كأنه لم يكن.

حدثيني يا ورد عن نُدرة الرجال فحدثتك عن نُدرة الإنسان، وأخبرتكَ
أن معظم السائرين تحت ضوء الشمس لا يمتلكون تلك النعمة
الإنسانية وإن كانوا يُشبهون البشر في أشكالهم وصفاتهم، إن المُفرد
من هذه المخلوقات أدعوه باللا إنسان. فقد رأيت من أمره عجب
العُجاب؛ إذ تبوء أعماقه الداخلية بنفس مريضة وعقل مشوه، نبُتوا
من ظلام دامس وجهل موحش، يتجسد في سلوك عدواني حيواني،
واعتناق رذائل الكراهية الحقد العنصرية الظلم والقمع.

أتعجب من أفعال ذاك اللا إنسان، أتحسر على حاله، نسي أن
مصالحه ورغباته الحثيثة تؤول في النهاية إلى اللا شيء، ومن أجل اللا
شيء، خان الأخوة، الصداقة، المبدأ، الضمير، والدين.

نزع إنسانيته، تنصل من الخير، رفض فضائل التسامح، التصالح، الرضا، القناعة. لعن القدر وتمرد على الخالق، لم ينطق لسانه لكن فضحه عاره، إنه مصدر اللا منطق واللامعقول، صنع الشرور، ابتكر الجرائم، نشر الفساد، أحال الحق إلى باطل، زين الباطل بالحق وآمن بالتناقض والازدواجية.

شن الحروب، أحرق أكباد الأطفال، نام هانئاً على أنين الثكالي، كبل العدل، قيد الحرية، استعبد العباد، ونشر الجهل فوق رؤوس الأنام، لقد رأيته يتمرد يعتو ويتجراً، ولما تملك سدد سهامه نحو السماء وانهال بالطعنات على ابن أبيه.

ظن نفسه نصف إله، جرائمه فجة ظاهرة للعيان، تُذاع أسراره العميقة على الملأ، ولم يعد يتوارى من سوءته.

ربما يشبه وحشية أسلاف العصور السحيقة، لكن مقارنته بهم تعد تلك ظلماً لهم، فقد ذاقوا البدائية المفرطة. عاشوا العماء التام، ولم يمتلكوا سوى رمح وأمعاء تتضور جوعاً.

أما صاحبنا هذا فقد أثار شمس المعرفة ظلام عقله، وأرشدته إلى الحضارة، سخّر العلم، ابتكر التكنولوجيا، وشيد ناطحات الخيال.

صنع القوانين والنظم لينعم بأمان المدنية، ولم يعد يحتاج إلى سيف، تطورت معيشتة، وتخلّى عن مطاردة فرائسه واستعمال عضلاته للحصول على قوته اليومي.

إذا وجدتِ يا ورد إنسانًا حي الضمير، نظيف القلب، طاهر اليد، صادق اللسان، راقى الخلق، حسن السلوك، جواد بالخير، داعٍ للسلام والعدل، كوني أنتِ هو ليكن لكِ أنتِ.

أعتذريا عزيزتي إن أثقلتُكِ بخواطري المُرهقة، فيكفي ما تختزنيه من آلام تخشين البوح بها، أو إطلاقها على ظاهر الآخرين خوفًا أن تلتقي بالشفقة في أعينهم.

وإليكِ قرار أخير بعد تفكير مضمّن، سأنمق حزمة رسائلِي وأرسلها إليكِ دفعة واحدة؛ لتكون تذكيرًا يجمعنا في أروقة الأحلام.

الهدس الثالث عشر

السلام عليكِ، يقرُّنك قلبي السلام،
وتبارك روجي روحك يا خير ورد الأنام،
انتظرت أربعين ليلة وزدت عليها أزمان،
استفتيت قلبي فأنا بَ وأتاني بالبرهان،
سألت نفسي فأجابتني صدق البيان،
واستعصمت بخالقي الحنَّان المَنَّان؛
فما يموج بداخلي إلا حب صادق الوجدان،
واستوطن العشق نفسي جبلاً ووديان،
وما كان يبدو نزوة أذاقني لوعة وأشجان.
وأما حيرة النفس قد انفطرت أحزان،
كأن القدر استكثر عليَّ أعالي الجنان،
وأنتِ ما بللت ريقي بقطرة تُنحي الظمآن،
بغيتِ على فؤادي واستسهلتِ الهُجران،
فأرحلي ما شئتِ فما خاصمتني الأعصان،

وكان عندي يقين نال ما في الحسابان،
وما عرفتُ سبباً يورثني النسيان،
تطوفين شرقاً وغرباً وتعودين إلى ما كان،
فإن ضاقت بك الأرض تمنحكِ رحي أكوان،
صبرٌ على صبرٍ فزادنا ذلك جُبران،
والله ما طمعنا إلا في جوهر الإنسان،
وزهدنا النوال رُغم شغفنا بتلك العينان،
واستبد بنا شوقٌ إليهما كشوق الأجدان،
وأنا لكِ وأنتِ لي إذا أقرَّ الأوان،
مهما تباعدنا وتفرقنا وخذلتنا أحيان،
سيأتي يوم خالد يذهب إليه كل فان،
وتفارق كل روحٍ حديد السجان،
فالله غالب أمره يا ذات الأفنان،
ولنا على الله أيمانٌ وإيمان.

الموسم الرابع عشر

يُحكي أن إله القمر لما أظنته الأشواق واستبد به الغرام، نزع فؤاده من صدره وألقى به من فوق السماوات فسقط على الأرض سقطَةً واحدةً فتناثر كأشلاء بلورية تبرُّق إذا امتدت إليها أنظار سكان القمر في حُلُكة الليل، ثم هَبَّت عاصفة هوجاء حملت الشظايا إلى شتى أرجاء العالم، فعجز إله القمر أن يسترد ما له، فلعن تلك الشظايا لتقلب قلوبًا لبعض البشر، وكان نصيبي من الدنيا شظيةً كامنةً بين أضلعي مصدرًا لنعمتي وبلائي، لعلتي وشفائي، لنصري وانهزامي، فكأنه يا ورد صار فؤادي مهبطًا للرحمة تنسكب فيه آلام البشر وأوجاعهم حيث يحزن لحزنهم، يلبس معاناتهم، ويهجع إليهم كدثار في عصف الشتاء ولا ينال من ربيعهم شيئًا، أما أنتِ يا ورد فصار حصنًا لضعفك وملجأً لأحزانك ومنبرًا لرجائك، تنصب فيه عواطفك وعذابك فيستحيل فارسًا ودرعًا يُجبرك من ظلم الدنيا ويحميك من غدر الزمان ويحنو عليك حنو الأغصان على العشب، ويح فؤادي إذ اهتاج في وجعك وأنينك وغاص في رقتك ولينك وشغف بمضغتك الرقيقة حيث تحنُ الشظايا إلى جوهرها الأصيل.

أه لو رأيته عندما ظهر في الأفق ساعي البريد بنظرة شفق تمتزج بيأس حنون، فألقى في يدي رسائلي وأخبرني أنك غيرت عنوانك، انخلع من صدري ودبّ الدُعر فيه ديببًا لو سمعته السماء لأشفقت على أهل الأرض وتطوعت الملائكة رُسُلًا بين المحبين.

لو حاجت المنطق في حالي يا ورد لسخر مني وادعي انكفاء عقلي
وهدياني، لكنها روجي تؤمن بك وتُصدق مقالي، وقلبي يميل إليك
ويرجلك فما غيبت وما غاب حُسنك عن بالي، وكأنك صورتني الثانية،
وكانك الجسد الآخر لروحي، وكأن نفسي امتزجت بنفسك فمن
يستطيع أن يفصل الماء عن الماء إن امتزجا في إناء واحد.

فطوبى لأهل الأحلام إن قُدر لهم العشق، وطوبى لكاتب الوحي إن صار
كاتبًا للحب، وطوبى لنفسي إن ظفرت بنفسك.

أعرف يا ورد إن مساراتنا متباعدة كبُعد السماء عن الأرض، وأن
أقدارنا متخاصمة لن تلتقي إلا إذا التقى الليل بالنهار تحت سقفٍ
واحد، إلا أنني أريد أن أحتفل بذكراك كملحمة خالدة، فأنقش
جمالك نقشًا على جباه التاريخ، وأنشد حُسنك معزوفةً أبدية على
أوتار العاشقين، وأجسد سحرك مسرحيةً على مسارح الخلود، وأشدو
بك يا إلياذة العهد الجديد.. فما هي "أفروديت" قد أطلت برفقٍ وحنوٍ
على عالمي التعيس.

فتكوني أنتِ روايتي وأكون أنا قارئك فما انصَبَّ جمالك إلا في جوفي،
فغمست قلبي في نور عينيك لأخط على الورق سحرك الأخاذ،

فسامحيني إن لم أستطع كتابة كل معانيك الملائكية؛ لأن قلبي من
صُنع البشر.

ولتعلني يا عزيزتي ما أحببتك إلا روحًا وما أردتك إلا حلمًا، ولكن في
دنياي لا تصير الأحلام واقعًا.

سأدعوك من اليوم الحبيبة الصديقة، البعيدة القريبة، القريبة
البعيدة، النادرة الفريدة، أسرة البسمة، صانعة البيهجة، غزال اليمن
السعيد، العربية الأصيلة، طبت وطاب جمالك وسعد حالك، وإن
كان لي عند الله رجاء وحيد فأرجوه أن يُمّنّ عليك بفرح قلبك وراحة
بالك.

المحتويات

٥	عن الذرة اليمنية.....
٩	الهمس الأول.....
١٥	الهمس الثاني.....
٢١	الهمس الثالث.....
٢٩	الهمس الرابع.....
٣٥	الهمس الخامس.....
٤٣	الهمس السادس.....
٤٩	الهمس السابع.....
٥٥	الهمس الثامن.....
٦١	الهمس التاسع.....
٧٥	الهمس العاشر.....
٧٩	الهمس الحادي عشر.....
٩٣	الهمس الثاني عشر.....
٩٩	الهمس الثالث عشر.....
١٠٣	الهمس الرابع عشر.....

www.mofrad.org